طارق عسراوي

اللَّعِب بالجُنود

مكتبة
t.me/soramnqraa

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQ PUBLISHING

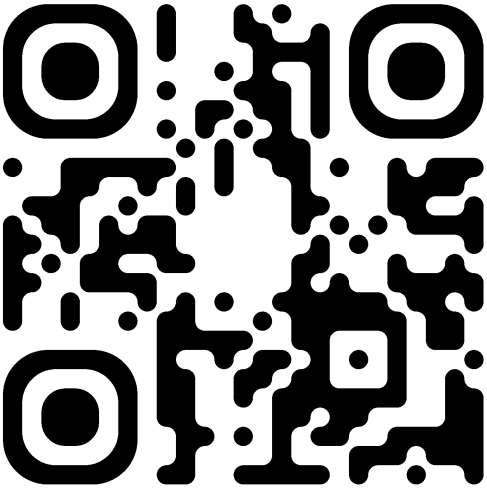

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

اللَّعِب بالجُنود

الكاتب: **طارق عسراوي**

عنوان الكتاب: **اللّعِب بالجُنود**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9950-402-91-1

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024 - 1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takweenkw takween.publishing@gmail.com

TakweenPH takween_publishing

www.takweenkw.com

دار طباق للنشر والتوزيع

حي المقاطعة، مقابل وزارة الثقافة، رام الله - فلسطين

هاتف: 97022414808+ / بريد الكتروني: info@tibaq.ps

طارق عسراوي

مكتبة
t.me/soramnqraa

اللَّعِب بالجُنود

رواية

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQPUBLSHING

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

«أفشى بعضهم سرًّا له إلى أخيه، ثم قال له: هل حفظت؟ قال: بل نسيت».

الإمام الغزالي

سوف تحدث هذه الحكاية في كل يوم،
بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٠.

١

مـا من فتـى في الرابعة عشرة من عمـره إلا ويربكه النَّظر إلى امرأةٍ تبدّل ثيابها.

وحين اكتشـفت ابتهال أنَّ شُـباك غرفـة نومها كان بمثابة شاشـة سـينما لزياد وأصحابه، أرسلت في طلبهم فورًا، لكنَّ أحدًا لم يجرؤ على تلبية دعوتها.

مكتبة ٢
t.me/soramnqraa

منعه والده من مغادرة المنزل في ذلك النَّهار، فقد اشتبه في رائحة تبغٍ تفوحُ منه، رغم أنه مضغ عِرق نعناع قصفه من حاكورة البيت، وغسل يديه جيدًا من صنبور البئر، وحلف مشدِّدًا بأنه لم يدخّن، بأنه لا يدخّن.

ظلّت شكوك أبيه قائمة بطبيعة الحال، فعاقبه تحسُّبًا: «ما تطلع من الدَّار اليوم»، ولم يسمح بكلمة واحدة زائدة.

وبينما هو يتأفَّفُ ويتململُ في ساحة البيت، حاول أن يتشاغل ببعض الأشياء. افتعل معركةً بين النَّمل الأحمر والأسود في علبة كبريت، أراد أن يصطاد جندبًا وفشل، قلّب قرون البامية المفرودةِ للتَّجفيفِ قبل تخزينها، ونقل خرطوم الماء إلى حوض الجوريّة الحمراء، تضوّع حوله عطر ملون بفعل اهتزاز أغصان الوردة وارتوائها، نقل الماء إلى شجرة العنّاب، ومنها

إلى شجرة الرُّمان، أغلق صنبور البئر قبل أن يتمَّ سقاية شجيرات الحديقة، وقرَّر الصعود إلى السَّطح، وهناك، ترامت المدينة أمام عينيه، ممتدَّة ومخضوضرة، وفكّر أن هذه هي المرة الأولى التي يلاحظ فيها اتساع المرجِ وألوانه.

تنحدر بيوت المدينة من جبالها الثلاثة لتتصل بمرج ابن عامر، أكبر سهلٍ زراعيٍّ في البلاد، ويظهر السَّهل ممتدًّا من أعلى، مثل بساط قماش مرقّع، بقطع بنيّة وأخرى خضراء كابية، وبعضها أخضر زاهٍ، أو أخضر شاحب.

واقفًا على السَّطح، شاهد صاحبهُ على سطح منزلهم المجاور، ينهمك في تثبيت صينية من الألمنيوم على حافة ذراعٍ خشبية، يطرق المعدن بحجر صوّان، ثمَّ يصل بها سلكًا أبيض ليقوم بنقلِ إشارة البثّ قبل أن يثبتها في زاوية السَّطح، موجّهة إلى الشمال، حيث امتداد مرج بن عامر، بنفس الطريقة التي دأب عليها فتية تلك الأيام لاستقبال إشارة قناة إسرائيل التلفزيونية الثانية، وضع أصبعيه الإبهام والسبَّابة بشكل دائريّ في فمه، ونفخ

هـواء صـدره مُطلِقًا صفيرًا حـادًّا، مدبّبًا، يشـبه الضجّر الذي يصيبه.

لا يقبـل الآباء وضع الهوائي الخـاص بالقناة التي لا تتحـدَّث بغير العبرية، إمعانًا منهـم في المحافظة، وتصديًا لأفـلام منتصـف الليل، بما تنطوي عليه من مشـاهد مخلّة بالعفـاف، ولكلِّ ما لا يمكن كبـح جماحه، مكتفين بأربع قنـواتٍ أرضيّـة لا غـير: التلفزيـون الأردني والتلفزيـون السـوري وقنـاة «إسرائيـل» باللغـة العربيـة الموجّهة من الاحتـلال إلى الفلسـطينيين، وفي كثـير مـن الأحيـان محطـة الشرق الأوسـط، التابعـة لأنطوان لحـد والمرتبطة بالاحتـلال الإسرائيـلي في جنـوب لبنـان بثلاثـة مثلثات خضراء في زاوية الشاشـة، مشـيرة إلى شـجرة الأرز، ولا يمكـن لأيٍّ من تلـك القنوات أن تبث ما يشـد انتباه فتيةٍ يهجسون بأسئلةٍ سكت عنها مجتمع يسكنهُ الخوف الأمني منذ سنوات طويلة، أسئلة من قبيل؛ ما هي المرأة؟

بعـد أن صنع تميـم الهوائي الذي يصلح لاسـتقبال الإشـارة التلفزيونية، قرَّر زياد أن يعبث في ليلةِ صديقه، ربما بفعل الغيرة، أو الملل المحض، أو حتى الاعتياد، وعند

منتصف الليل، أي في موعد الفيلم، شاهد تميم يتسلّل خفية خارجًا من بيته، صاعدًا إلى السطح بخطوات حذرة، ليضبط توجيه صينية الألمنيوم، ويحصل على نصيبهِ من الإجابات، أو الأفلام، أو النساء؛ أي المشاهد التي سيشاهدها مكتومة الصوت تحسبًا لمرور والده، مشعلة فيه عواء جروٍ يتحسس طرائده المتخيلة.

خرجَ زياد من بيته، وكان قد ربط فردتي حذاءٍ قديم معًا بواسطة سلكٍ نحاسي طويل، ثم وقف في وسط الشارع، قريبًا من محوِّل الكهرباء، ولوَّح بفردتي الحذاء دورتين كاملتين قبل أن يفلتهما من يده، ليطيرا بحركةٍ لولبيةٍ ناحية الأسلاك العامة، فتتعلق الفردتان بين سلكين وتحدثان شرارةً صغيرةً من تلامس الأسلاك، لتنقطع الكهرباء عن الحيِّ بأكمله.

هكذا يغرق شارع بيتهم في جبل أبو ظهير دون المدينة بالعتمة، ليعود زياد إلى شرفة بيتهم، ويجلس مادًّا رجليه على الطاولة، منتظرًا مجيء سيارة البلدية بأضوائها البرتقالية التي تشق حجب الليل، لتقف تحت أسلاك الكهرباء العامة، وترفع صندوقها بموازاة الأسلاك فيقوم

العامل بإزالة الحذاء العالق، ويسقطه على ظهر الشاحنة، ثم تنسحب السيارة نزولًا إلى تقاطع مقبرة «دير اللاتين»، وتنعطف يمينًا إلى دار البلدية، لتعود الإنارة إلى ما تبقى من مصابيح الإنارة العامة والبيوت.

ورغم أن العبث بأسلاك الكهرباء العامة سلوك شائع عند أغلب فتية أحياء جنين، وأنه ما من سلك إلا وتدلّت منه أربطة معلق بها حجارة أو أحذية أو عبوات مسيّلة للدموع وكل ما لا يتوقع رؤيته معلقًا بالأسلاك، إلا أن تميم قد اشتمَّ في تلك الفعلة رائحة زياد، وفي اليوم التالي عند عودتها من المدرسة أثخنه بالشتائم والسباب، غاضبًا لأن صوت شاحنة البلدية أيقظ والده من نومه ليلة أمس، ما اضطره إلى أن يخلد إلى سريره في منتصف الفيلم، ومن دون اصطياد مشهدٍ واحد.

عندها قال زياد:

- هس سيبك من فيلم الزفت اللي بتضلك تستناه طول الأسبوع، شو رأيك اليوم نلعب بالجيش؟

٣

ينـدرُ أن يسـكن في حيِّهـم جـارٌ جديد، والسَّـبب الواضح هو قلّة المنازل المتاحة للإيجار، فالبناء لأكثر من طبقتين لم يكن دارجًا في تلك الحارة، والحصَّة الأوفر من رقعة الأرض كانت من نصيب الأشجار.

لكل عائلة في الحيِّ بيتٌ تملكه، تحيطه حديقة واسعة، لـذا يبـدو المـكان وافر الخضرة لمـن يطل عليهِ مـن الجبلِ المقابـل، بفضل كثافة الحمضيـات واللوزيات التي تحيط بالبيـوت، ووجـود براحاتٍ مزروعـةٍ بأشـجارِ الزيتون التـي يتجاوز عمرها السِّـتين عامًا؛ أراضٍ غير مسـيّجة، متاخمة لبعضها، يعرف أصحابها حدودها بفعل سلاسل حجريـة بسـيطة تفصـل بينهـا، أو مـن أشـجار التـوت والتـين التي تُزرع في الأطـراف، أو من البراميل المملوءة بالحجارة، وغالبًا من سياج يشكّله نبات الصبّار.

امتـلأت الحـارة بمسـاحات رعوية كانت مشـاعًا

لسكانها، ولا يحتاج أهل الحيِّ إذنًا من أحد ليدخلوها ويقطفوا منها ثمار اللوز الأخضر أو الصبر أو نبات الخبيزة البري، وكل شجرة تينٍ أو توت ثمرها منذور منذ الأزل وإلى الأبد للطيور والمارّة وقطعًا لجميع أولاد الحارة.

عصر يوم الجمعة، توقفت شاحنة محملة بالكراتين والحقائب أمام منزل أبو تميم. كان منزلًا يتألف من طابق وتسوية بُنيت واجهته بالحجر الأبيض، محاطًا بأشجار التين والعنب واللَّوزيات، وقد أحال أبو تميم ساحة البيت الأمامية إلى معرضٍ للأثاث المستعمل، وبتعبيرٍ أدق؛ إلى كومة خردة. كان يبيع ويشتري كل ما هو مستعمل من أجهزة كهربائية، وأثاث، ودرّاجات، وماكينات تصنيع، وغيرها، ولذا لم يلتفت أحد إلى أمر الشاحنة التي أفرغت أثاث ساكنٍ جديدٍ استأجر طابق التسوية، واحتاج الأمر مرور يومين حتى تتبيّن الحارة طبيعة الواقعة، وتطلَّب أن تصطحب أم تميم جارتها الجديدة في زيارة صباحية عند أم زياد.

حينها، صار اسم ابتهال حديث كل بيوت الحارة في

ذلك المساء، وحين أقول بيوت الحارة كلها، فإنني أعني ذلك حرفيًّا، كلها، إلا بيتًا واحدًا، هو بيت «المفيد».

لا أحد يعرف قريبة أبو تميم هذه، لا أحد يعرف إن كانت مطلقة، أو أرملة، أو زوجة أسير، أو زوجة رجل مغترب.. وحده أبو تميم يعرف الجواب، أما ابتهال فلم تجب على سؤال أم زياد عن زوجها إلا بقولها: «الله يسهّل عليه»، والله يسهل عليه هذه، حمّالة أوجه، وهي حتمًا ليست جوابًا شافيًا، وإن استبعدت فكرة زواجه بامرأة أخرى، فإن صمت ابتهال يضعها في دوّامة الفضول والارتياب.

الغريب في الأمر، أن أم تميم لم تتواطأ هذه المرة مع أم زياد لتخبرها بجذر الحكاية، رغم أن قلقًا واضحًا قد ترك أثره على وجهها حين قالت ابتهال: «الله يسهل عليه». لم تلعب أم تميم الدَّور المتَّفق عليهِ ضمنًا بين الجارتين لاستجوابِ القادمة الجديدة، وظلت أم زياد تحومُ كالنسرِ حول ابتهال في محاولة معرفة أصلها وفصلها، ومن أين جاءت ولماذا، وأين كان جدُّها عند النكبة ومن أين لجأ، ومن هم أخوالها وأنسباؤها، حتى ظهر الضيق على وجه

ابتهـال، ولكي تبدد أم زيـاد توتّر الأجواء تناولت قطعة «حِلبـة» من الصينيـة ووضعتها في صحـن مدّته صوب ابتهـال: «الله يخزي الشـيطان، أخذنا الحكـي..»، قالت وهي تصبُّ لها كوب شاي بالنعناع.

- اتفضلي يا أم.. أم إيش الله يخليلك..

- أم بيسان.

ابتسمت ابتهال وعلّقت:

- طيبة هالحلبة، شغلك هاي يا أم زياد؟

عرفـت أم زيـاد أن ابتهـال لا تقـل مراوغـة عنهـا، وقبـل أن تجيبها، أردفت أم تميم: «وبتعمل أزكى هريسـة جنينيـة»، وكان لهذا المديح وقع لذيذ عـلى قلب أم زياد، فانتشت وارتخت وانفرجت أساريرها، وتناست أسئلتها الفضولية الملحّة، وقـرّرت، إمعانًا في إظهار مواهبها، أن تدلِّل ضيفتيها في زيارتهما القادمة: «المرة الجاي بعمللكم هريسـة خـص نـص». لم تسـتطِع أم تميـم إجابـة سـؤال واحـد نيابـة عن ابتهـال، كما تفعـل عادةً أمام كل سـؤال يطرح أمامها، والسَّـبب في ذلك ببسـاطة أن أم تميم برغم حشريتها لا تعرف من هي ابتهال؟

أجّرها أبو تميم التسوية حتى يضع قريبته أمام عينيه، مشدِّدًا على كلمة «قريبتي» أمام زوجته، وأمام عينيه تعني الاعتناء بها، وتعني أيضًا أن يتفرَّج عليها، فهي امرأة في منتصف الثلاثينيات، تترك شعرها مسدلًا على كتفيها وأحيانًا تربطه مثل فرس وتترك فيه جديلة صغيرة، بيضاء بعينين خضراوين زاهيتين، لها شامة شقراء على يمين عنقها، ضحكتها سهلة، كما وصفتها أم زياد، تتشمَّس بعد الظهيرة في فناء البيت، تقرأ المجلات، وتسمع أم كلثوم، تعمل في عيادة وكالة الغوث بوظيفة إدارية، ولها مصدر دخلٍ ثابت، وهذا كفيل بأن يُسقط قلب أم تميم خوفًا على أبو تميم ذاته، أو ما تبقى منه.

في الحقيقة لم تأتِ ابتهال بأي فعل يشحذ شكوك أمّ تميم، فهي تعود إلى بيتها عند الظهيرة، تدرّس طفلتها وتنهمك في أعمال البيت، لا تخالط نساء الحي إلا بعد إلحاحٍ من أم تميم، تبدّل أنبوبة الغاز بيدها، تتخيّر أوقاتًا لا يكون فيها الشارع مزدحمًا لتذهب إلى الدكّان، أو تجلس في فناء الدار تشرب الشاي بالميرمية، فهي بحالها، «كافية خيرها شرها» بحسب وصف أم تميم، لكنّ

نظرة واحدة من شبَّاك مطبخ أم تميم على منشر غسيلها صباحًا، كانت كفيلة بأن تحرقصها، خاصّة وأن الأمر يتعلق بقمصان النوم الشفافة الزاهية، وروب الحمام الزهري، وكل ما يشي بالرشاقة والنعومة واليفاع. وحين قال أبو تميم: «معاش ابتهال قد نص شغلي طول الشهر»، قالها والقطع النقديّة المعدنية ترنُّ في صوته، فعرفت أنَّ زوجها لا يؤتمن جانبه، وأنَّ عليها أن تقلق، فهو مثل طائر الوقواق، لا يرقد في عش.

٤

تعبر دوريات جيش الاحتلال يوميًّا من الحيِّ قبيل المساء، كي تبدّل ورديّة الجنود الذين يستحكمون سطح منزل أبو جميل، أكثر منازل الحيِّ ارتفاعًا، لتموضعه في أعلى الحارة، ولكونه البناء الوحيد تقريبًا المكوَّن من أربع طبقات في جبل أبو ظهير، ولأنّه، أيضًا، بيت «المفيد» رئيس البلدية.

يستحكم الجنود سطح المنزل كنقطة دائمة لمراقبة المدينة من تلك الواجهة وحمايةً لتابعهم، وقد اعتاد أولاد الحارة الاختباء بين أشجار المنازل لحظة مرور مركبات الجيش، وإمطارها بالحجارة والحصى والزجاجات الفارغة. في الغالب لا يلقي الجنود بالًا للفتية وحجارتهم التي تتساقط على شبكٍ يحمي زجاج المركبات مثل فقاعات الصابون، إلا أنه يحدث أحيانًا أن يترجَّل الجنود من المركبات ويطلقوا الرَّصاص في الهواء، فيفرّ الأولاد

مـن حدائـق البيـوت القريبـة إلى حدائـق أبعـد، وتخرج النسوة فزِعات للملمة أولادهنَّ من الشوارع.

وفي ذلـك اليوم، اتفق زيـاد وتميم في طريق عودتهما مـن المدرسـة، أن يضعا كيسًـا بـه جهاز راديـو تالف في طريق الدَّوريات، ويمدّا منه سـلكًا إلى جانب الشـارع، الأمر الذي سيؤدّي -بحكم التجربة والخبرة- إلى إرباك الجنود وإثـارة هلعهم، فيغلقون الحـارة لبعض الوقت، ويحـضِرون جهازًا آليًّا يُتحكَّم فيه عـن بعد لنزع الكيس وتفكيكـه باعتبـاره جسمًا مشـبوهًا، «وهيـك بنلعـب فيهـم»، قال زياد، ففي تلـك الحارة يلعب الأولاد ألعابًا جماعيـة كثيرة؛ ككرة القدم، وطابة وسـبع حجار، إلا أنَّ لعبتهم الأثيرة دائمًا هي اللعب بجنود الاحتلال.

توجَّـس تميـم من الفكرة وسـاورته مخاوفـه، فهو لم ينسَ يوم تسلق شجرة السَّرو العالية المقابلة لبيتهم، وربط على رأسـها علم فلسـطين، على ارتفاعٍ لا يتسلقه إلا قرد بمواهبه. تمايلت الشجرة العالية في قمتها الطريّة، ورأى الجميـع العلمَ يرفرفُ مـع اضطرابات المدينة، وقد أوثق رباطـه في أعلاها، وبدا للناس كأن يدًا خضراء عملاقة،

ممدودة إلى السماء، تشاركهم المظاهرات، وتحمل الراية بنديّة وزهو.

عجز موظفو البلدية يومها عن الوصول إلى العلم من أجل انتزاعه، رغم ارتفاع صندوق سيارة البلدية ومد قضيب حديدٍ إلى أعلى، فالسروة البريّة يخلو جذعها من الأغصان لارتفاع مترين أو أكثر، كما لم يجدِ نفعًا تصويب الجنود الرصاص في اتجاه العلم. حاول عامل البلدية -الذي أراد أن يلفت نظر المفيد- أن يتسلق السروة لينتزع العلم، إلا أنه انزلق سريعًا وسقط على مؤخرته، فبدا مضحكًا للجنود ولسكّان الحارة معًا.

كان المشهد مثيرًا بسبب العَلم الذي انتصر على الجنود، كونهم الأقل لياقة وقدرة على تسلق الأشجار، وأمام ضحكات أهل الحارة الساخرة، توجّه ضابط المخابرات إلى تجمهر المشاهدين، وساق أبو تميم من ياقته إلى وسط تجمّع الجنود، وأمره تحت تهديد السلاح بأن يتسلق الشجرة.

نظر أبو تميم إلى وجه رئيس البلدية الواقف إلى جانب الضابط، وقد بدا وجهه مصمتًا رغم الابتسامة

الباردة النافرة من شفتيه. مسح وجهه بباطن كفِّه مهمهمًا: «مخبول هذا!»، مشيرًا برأسه إلى الضابط:

- بدو إياني أتشعبط على السروة؟ مش شايفني يا دوب قادر أوقف؟

ثم أضاف:

- إحكيله ما بقدر.

لكن رئيس البلدية لم ينقل كلمة واحدة للضابط الذي بقي يدفع أبو تميم بكتفه مشيرًا إلى السروة، وظلَّت عيناه مثبتتين على وجه أبو تميم، وقد ارتفع حاجباه قليلًا إلى أعلى. وبين عجز أبو تميم، وابتسامة رئيس البلدية، وإصرار الضابط -المخبول- على طلبه، أراد جميل التدخل وتسلق الشجرة، لكنه قبل أن يخطو خطوة واحدة، قبض المفيد على ساعد ابنه وضغط عليها، ولمّا حاول الإفلات زجره بنظرة متوعّدة.

أصبح الزمن بطيئًا، ثقيلًا على الضابط الذي لاحظ خطورة الموقف، لأنَّ الأهالي كسروا حاجز الرهبة، وأخذوا يقتربون منه تدريجيًّا، زاحفين بدأبٍ إلى حيث يقف الجنود متحفزين بأعين متوترة واسعة

لّاعـة. هنا فقط انتبـه الضابط لملصقـات عديدة لصورة ولد مبتسـم على أسـوار البيـوت الخارجيـة، يعرف أنها لفتى من الحـي، أصابه الجنود برصاصة قاتلة وهو يلقي الحجارة، فزادته الصورة حنقًا، وسـحب سلاحه المعلق بظهره، بندقية «عوزي» سوداء قصيرة، مدّها فوق رأس أبو تميم وأطلق الرَّصـاص في الهواء، ومع ارتطام فوارغ الرصـاص النحـاسي بالأسـفلت محدثـة رنـة مكتومـة، وتحليـق الحمام المنـزلي من على أسـطح البيـوت القريبة، اندفـع تميـم راكضًـا من بين أهـل الحارة صوب شـجرة السِّرو مباشرة، وتسـلقها وانتزع العلم من قمتها، خوفًا عـلى والـده الذي تلوّن وجهـه مرتين، أصفـرَ حين أمره الضابط بتسـلق السروة، وهو غير قادر على تسلق سلم، وأحمرَ حين شاهد ابنه ينتزع العلم، ويلقيه من قمتها.

طبطـب رئيـس البلديـة عـلى كتـف أبـو تميـم وقد تبخرت عن وجهه الابتسامة وانتقلت إلى وجه الأخير:

- انتبه لابنك يا أبو تميم، أحسن ما يرجعولك إياه بكيس أسـود. إلـلي يقدر ينزّل العلـم أكيد يقدر يعلقه..

ورغـم أن زياد يعرف القصة جيـدًا، وأنه منح تميم يومها لقب «القرد» بين سـائر أبناء الحارة لتخليد ذكرى ذلك اليوم، فإنه لم يوافقه على مخاوفه.

وضـع يده عـلى كتف صاحبـه وقد ارتسـمت على وجهـه ابتسـامة يعرفها تميم جيـدًا؛ ابتسـامة «الزعرنة»؛ الشـغب بوصفـه عمـلًا وطنيًّـا، وإن لم يكن أيهـما يدرك ذلك حينها.

قال زياد:

- مـا تخـاف.. حتـى لـو انمسـكنا، هـذا راديـو خربان على الشـارع مـش علم معلق فوق سروة بوصلوش غير قـرد مثلك، أبوك بسـهولة بقدر يشيله من الشارع بدون طلب من الضابط.

وأضـاف أنه وأولاد صفه قد قامـوا بالأمر من قبل عند الشـارع العسـكري القريب من مدرسـتهم، يومها قـضى أولاد المدرسـة والأسـاتذة الحصة الرابعـة بطولها متعلقين بشبابيك الصفوف يراقبون ما يجري مستثارين. يمكن القول بأن زياد يحبُّ هذه اللعبة أكثر من غيرها.

وهكـذا التقيـا في حديقـة بيت تميـم الخلفية، حيث

يضع والده ما لا ينفع من أجهزة كهربائية؛ تلفاز «شارب» بلا شاشة، مسجل «باناسونيك» مكسور، ثلاجة «تاديران» بلا أبواب وأسلاك تالفة. انتقيا جهاز راديو من نوع «فيليبس»، وضعاه في صندوق كرتون حذاء «فورسا»، وأخرجا منه سلكين معدنيين باللون الأزرق والبني، ثم وضعا الصندوق في كيس نايلون أسود، وأحكما ربطه مع إبقاء الأسلاك ظاهرة خارج الكيس.

«هيك احنا جاهزين»، همس تميم.

لمعت عينا زياد.

- رح نحطه بنص الشارع أول ما نشوف الجيبات طالعين من أول الجبل، وبنفرك عالبيت عنَّا نتفرج عليهم من السطوح..

٥

منذ ذلك اليوم، لم يعد زياد وتميم كما كانا عليه.

انسحب الصبيّان تدريجيًّا من شوارع الحارة، انزويا عن بقية الأولاد، وتمترسا خلف طبقةٍ ثقيلة من الصَّمت، رغم أنهما لم يتمّا خطة الراديو كما اتفقا.

لم يغِب الاثنان عن الحارة، وكلما ناداهما أحد خرجا من حديقة دار أبو تميم بخفّة، وجلسا على عتبة منزل زياد، واكتفيا بالردود المقتضبة على الأسئلة والتساؤلات، وترديد الكلام الذي لا يفضي إلى شيء. ورغم أنَّ أحدًا لم يعرف بما حدث في ذلك اليوم، فإن أصحابهما قد حدسوا بوجود سرٍ خطير ينسج شباكه بين الاثنين، فقرروا مراقبتهما.

قبيل المغرب، يخرج زياد من بيته لملاقاة تميم، يسيران وصولًا إلى آخر بيت في الحارة، ويعودان إلى الجهة الأخرى ليبلغا آخرها، ثم يقفان قليلًا عند رأس

طلعة الجبل، تحت محوّل الكهرباء، كما لو أنهما في ورديّة حراسة، قبل أن يقفزا من السُّور إلى حديقة دار أبو تميم، ويجلسا في الحديقة يتهامسان دون حراك حتى حلول الظلام فيعودان إلى بيتيهما، مجهدين.

تكرر الأمرُ لأيّامٍ على هذه الشاكلة، حتى فقد أيمن صبره، وشعر بأنَّ صاحبيه قد تخليا عنه، ولم يشركاهُ في مغامرتهما السريّة التي يموتُ كمدًا لاكتشافها. قرَّر مكاشفتهما في الأمر، وفي اليوم التالي أثناء العودة من المدرسة، باغت الاثنين بقوله:

- إنتو أكيد بتعملوا إشي ببعض، أنا راقبتكم وشفتكم بتختفوا جوات شجرة التين.

وكلمة «ببعض» تعني شيئًا واحدًا في لغة أولاد الحارة، وأن يقولها أيمن يعني أنه سيخبر بها كل سكّان الكوكب، أو هذا الجزء منه على الأقل، فأيمن -حرفيًّا- إذاعة متنقلة، ولهذا السَّبب تحديدًا كتما الأمر عنه، لكنهما الآن لا يملكان إلا أن يشركاه في السِّر تفاديًا لكلمة «ببعض» التي لن تعود أبدًا إلى فم أيمن إذا قالها مرة أخرى، فأخبره تميم:

- ابتهـال بتغيّر أواعيها من دون ما تسـكّر سـتارة الشبّاك.

برقت عينا أيمن وجـفَّ ريقه، أطلق صفيرًا طويلًا من شفتيه:

- شو عم تحكي!

خَـشي زياد أن يكمـل تميم كلامـه، وأراد أن يضبَّ الأمر، ويحسمه بشكل نهائي، ليضع حدًّا لحكايةٍ أوشكت أن تخرج من عقالها وتتحوَّل إلى فضيحةٍ بجلاجل.

استدرك:

- بـس هي سـمعت صوتنـا أمـس واحنـا هربنا، وخلاص مش راجعين..

ثمَّ أضاف:

- أوعك تحكي لحدا.. لأنك صاحبنا قلنالك.

اتسعت حدقتا أيمن، بلع ريقه. لقد اتخذ قراره:

- بدي أشوفها زيكم.

تبـادل زيـاد وتميـم النظـرات، اصطبـغ وجهاهمـا بحمرة قانية.

- بقلـك بطلنا نروح، بتفهمـش؟ أبوي بلعب علي إذا عرف.

مطَّ أيمن شفتيه رافعًا ذقنه وحاجبيه، أجاب:

- بدي أتفرج زيكم، بضل سـاكت بحكيش لحدا، اسـأل تميم.. مـا حكيت لحد عنه لما كسر شـباك الجامع، وحكيت إنه جميل اللي كسره.

أومأ تميم برأسه مؤكدًا ما قاله، ثم قال:

- بس عنـدي شرط، بتعطينـي مصروفك يومين، وبتيجي معنا مرّة واحدة فقط.

انفرجت أسارير أيمن:

- حق تذكرة يعني، موافق.

٦

لم يكن زياد مرتاحًا للأمر، فهو يعرف أنَّ أيمن لن يسكت، وأنه بعد أن «يتفرَّج» على ابتهال، سيفضح الأمر برمّته، فلا شيء أثقل على ثرثارٍ مثله من تخلِّيه عن مصروف يومين إلا كتم سرٍّ مثل هذا.

جفا النوم عيني زياد في تلك الليلة، تقلّب في سريره يصارع مخاوفه، سحب الغطاء فوق رأسه وأغمض شادًّا على جفنيه. ماذا لو حكى أيمن لجميل عن الأمر؟ «أيمن ما بتنبل بتمه فوله.. رح نتخوزق إذا جميل عرف، أكيد بيحكي لأبوه!». ودّ لو يطير من سريره لينتشل تميم من نومه ويلطمه على وجهه، أو يسأله أيُّ حماقة هذه التي اقترفناها، وقرّر: «رح أخبط ببطنه إذا حكى كلمة وحده»، وجال في باله كلُّ تحذيرٍ سمعه وتلقاه في حياته، من والده ومعلّميه وجيرانه وأقاربه، بشأن ضرورة الابتعاد عن الشبهات.

في تلك الحارات، يعدُّ الحذر أول حجر بناء في وعي الفتية، وهو يتواتر يوميًّا في حديث الأهل، وعند زيارة كل جارٍ خارجٍ من السجن، وفي كل الحصص المدرسية حين يغلق المعلم كتاب المنهاج الرسمي، وفي حصّة الفن والرياضة، الجميع يتحدث عن سقوط الناس في مستنقع الاحتلال لأكثر الأسباب تفاهة وتهافتًا، وكيف لا يستطيعون بمجرد انزلاقهم أن يستعيدوا أقدامهم من ذلك المستنقع، وكيف أن الناس لا يحتاجون إلى دليل قاطع لكي يصبح المرء مشبوهًا وخائنًا وجاسوسًا، إذ يكفي أن يكون المرء مدير مدرسة ملزم بالتواصل مع الضابط المسؤول عن التعليم، أو أن يسوقه الجنود عند حاجز التفتيش إلى مركبة عسكرية بالمكان لدقائق ثم يتركوه، أو أن يلمحه أحدهم على شاطئ بحر حيفا مع زجاجة بيرة، أما إذا شوهد في مدينة العفولة مع امرأة شقراء، فحدّث ولا حرج عليك، فهذا يُقسَم عليه بأغلظ الأيمان أنه جاسوس، ولن يجديه نفعًا ما سيقوله من أنه عامل في مصنع أو ورشة بناء مثل آلاف العمال، وأنَّ المرأة الشقراء هي ربّة عمله، وإذا ما أحاطت الشبهات

شخصًا ذا مهابة بين الناس، أو «على قد حاله» بوصف أهل جنين، فإنه لن يخرج من بين يدي ضابط المخابرات إلا وقد تم تعيينه مختارًا للمدينة أو رئيسًا للبلدية.

هذا الأمر لا يزعج الاحتلال، بل يسعده بالأحرى، حتى لو كان غير صحيح، فلا ضير من شيوع الجواسيس والتوجّس بين الناس، ويمكن أن يطلب كابتن أسد بنفسه من الجواسيس تثبيت جاسوسية شخص بريء، وفي تلك الحارة ثمّة شعارٌ مكتوب على الجدران بالطلاء الأحمر: «السَّاقط أخلاقيًّا، ساقطٌ أمنيًّا».

الكارثة، أن يعرف أيمن حقيقة الحكاية ويخبرها لجميل، «يلعن أبوك يا جميل»، تمتمَ زياد وهو يتقلب في سريره، فقد شاهد بأم عينه جنديًّا، ممن يستحكمون سطح بيتهم، وهو يمرِّر له الكرة، ثم فكّر في أبيه.

دائمًا ما يكون والده على حق، فهو يعرف جميع الناس، وقد قصَّ عليه عشرات القصص من واقع اعتقاله وسنوات سجنه، وإفلاته من مصيدة كابتن أسد، ضابط المخابرات الذي جاء خصوصًا ليفترس الناس في جنين، ولن ينسى يوم قيَّدَه والده بيديه في درابزين بيت

الـدرج، وأقسـم أن ينام ليلتـه تلك مربوطًـا مثل كلب، لولا بكاء أشـقائه المرير، حين عرف أنه ذهب برفقة تميم وأيمن إلى بيت جميل من أجل لعبة سوبر ماريو.

يومها حسم والده الأمر تمامًا:

- ما تمشي مع جميل يابا، هذا ابن المفيد، أبوه رئيس البلديـة، كلب من كلاب أسـد. أوعك تروح ع بيتهـم.. ما تتقاتـل معه، ما تحكيلـه لا منيح ولا عاطل.. فهمت؟

- يعني جميل جاسوس زي أبوه؟

سـأل والـده بصـوت قاتـم، والضيـق يطبـق عـلى صـدره. ودّ لحظتهـا لو يجر جميـل إلى حمّامات المدرسـة، يعلّم عليه، «يخلعه بدن» ما ينسـاه طول عمره، انتقامًا مما تسبب به.

- لا مش جاسـوس، بس أبوه وسـخ وزبالة، ولو كان نبـي مـا تمشي معه، اسـمع شـو بقلـك وما توجع راسي.

مسح الأب بعينيه وجوه أولاده: أربع بنات وثلاثة أولاد يجلسـون حولـه مشـكّلين نصـف دائـرة، خلفهم

شاشة تلفاز مكتومة الصَّوت في غرفة الجلوس، وأم زياد تعض على شفتيها كلما نظرت إلى وجه زوجها كي يخفِّف من حدّة عصبيته، متظاهرة بالانهماك في حياكة الصنّارة، تمدّ يدها بين لحظة وأخرى لتسحب خيط الصوف الأبيض، وتطلق تنهيدة ثقيلة، تحوقل وتستغفر.

أنهى أبو زياد كلامه بإصدار بيانٍ يحفظه جميع أبنائه عن ظهر قلب حتى هذه اللحظة:

- إللي بغلط منكم أنا اللي رح أقتله، أنا مش حد غيري. مفهوم؟!

٧

أفاق زياد على نداءاتِ أمه، إذ عليه أن يذهب لإحضار فطور يوم الجمعة من السوق، ولم يتبدّد الثقل من جفنيه إلا عندما سمعها تقول: «تميم بستنّاك عالباب»، وكان لزامًا أن تضيف: «ما تتأخر زيّ عوايدك» تحسبًا لانعطافه المستمر إلى خططٍ جانبية.

وثب من سريره، ارتدى جينز وتيشيرت، غسل وجهه، صفف شعره بأصابعه كيفما اتفق، أخذ نقودًا يضعها والده على حافة مدفئة الحطب في غرفة الجلوس، وجد أمه في المطبخ وقد جهّزت له صحنين فارغين في كيس نايلون، أحدهما مجوّف للفول، والثاني مفرود للحمص.

يحفظ زياد خط سيره عن ظهر قلب، عليه أن يذهب أولًا إلى مطعم «أبو زيد» حتى يلحق نصيبه من الفول، ثم إلى مخبز «أبو موسى»، ومن هناك إلى فلافل

«الأمباشي»، وفي طريق عودته يقف عند حمّص «أبو النواس».

لكن الأهم من الفول والحمَّص، رغم أهميتهما البالغة بطبيعة الحال، هو أن يحدِّث تميم عن أيمن.

أخذ الصَّحنين على عجالة وخرج لملاقاة تميم وصوت أمه يتبعه: «مش تقضيها تتصرمح بالسوق للظهر!».

كان القلق يعضُّ على قلبه، أراد أن يلقي مخاوفه من أيمن وجميل في وجه تميم، وأن يعثر على مخرجٍ من المصيبة التي تورَّطا فيها أو أوشكا. وجد صاحبه يحمل صحونه في انتظاره، ولكنّه وجدَ أيضًا أسوأ ما يمكنه أن ينتظر فتى في مثل موقفه؛ كان أيمن واقفًا إلى جانب تميم والابتسامة البلهاء تشقُّ وجهه، وبدا كمن يتهيأ للذهاب إلى حفلة، وفور أن رآه همس: «بدنا نروح اليوم نشوف الوضع»، غامزًا بعينه اليمني. وأضاف: «أنا جاهز وأعطيت تميم مصروفي».

انقبض قلبُ زياد، أضمر سبابًا في خاطره ونظر إلى وجه تميم شزرًا.

خفض تميم رأسه إلى الأرض، وهو يحكّ رأسه، ودون أن يعقب بكلمة، سار قبلهما.

نزل الثلاثة من الحارة صوب السوق، مروا من حي «السكّة» في اتجاه المقبرة الغربية، توقف زياد عند السور، فوق عبّارة مجرى «عين نينه» حيث تجري المياه في الجدول الصغير، نظر إلى جريان المياه المتاخم لسور المقبرة من ناحية مقهى النباتات. تبادل وتميم الهمس:

- ليش جايب هذا اللزقة معك عالصبح!

- شو بعمل؟

- اخرس!

قطعوا دخلة «السلفيتي» من فتحة أحدثها سكّان الزقاق بين البراميل الأسمنتية التي تغلق الشارع بارتفاع ثلاثة أمتار. كان الاحتلال قد أغلق الدخلة، كما أغلق طلعة «العطاري»، ومدخل «السيباط»، وكل زقاق أو شارع ألقى منه الشبان الحجارة صوب الجنود، ومنها انعطفوا يسارًا. بقي أيمن يثرثرُ طوال الوقت، وبقي زياد واجمًا.

كانت المحلات قد بدأت بفتح أبوابها، ووضع

أصحابها مقاعدهم المصنوعة من القش في ظلال الأشجار الكثيفة التي تظلِّل شارع المكتبات، حيث يغلق السوق أبوابه يوم الجمعة مع موعد صلاة الظهر، رأى والده يجلس أمام دكانه يقرأ جريدة القدس، أشار إليه من بعيد بتحية صباحية. وصلوا الدُّوار الرئيسي، كان محل فلافل الأمباشي مكتظًّا بالأولاد، «نوخذ الفلافل هس؟»، سأله تميم. هزَّ رأسه نافيًا:

«بنجيب الفول بالأول».

قطعوا الدُّوار صوب زقاق عمارة نعمان، نزلوا درج الزقاق فبان لهم مطعم الفول، لحسن حظهم لم يكن مكتظًّا. همس زياد لتميم:

- كيف نخلص منّه؟

يقف أبو زيد خلف طاولته يحرك مغرفة الفول الطويلة داخل القدر النحاسية. طلب زياد الفول «عليه دقّة فلفل بزيادة، بدون زيت» مادًّا صحنه المجوف، وكذلك فعل تميم وأيمن. مروا على مخبز أبو موسى، ومنه إلى عمارة «العِو»، حيث مطعم الفلافل، وقف في الطابور ينظر إلى أعلى، حيث يستحكم الجنود سطح

العمارة، فهي العمارة التجارية الأعلى في منتصف السوق، بدت له وكرًا للعفاريت، مهجورة في كل طوابقها الخمسة إلا من المحال التي على الشارع، مكسّرة النوافذ من الحجارة والرصاص، لا يجرؤ أحد على الدخول من بوابتها والصعود لخطوتين، يقابلها المسجد الصغير على الجهة المقابلة في بداية شارع البريد، ومن هناك يهرب الشبان متخفّين بأصوات الباعة عبر سوق الخضار القديم إلى حارة المصاروة كلما لاحقهم الجنود.

رؤية الجنود ذكّرته بجميل.

خلال سيرهم عند البريد صوب مطعم أبو النواس مال تميم على زياد، وذكّره بأن يبقي معه مالًا يكفي لشراء «سيجارتين إمبريال»، واتفقا على اللقاء بعد التخلص من أيمن: «عند الكينا بعد الإفطار».

مكتبة
t.me/soramnqraa

٨

قبل الظهيرة بقليل، عبر الصبيّان بوابة المقبرة الغربية، بعض القبور مبنيّة بالحجر الأبيض بدت لزياد أطول من أبيه، وبعضها أرضيٌّ محاطٌ بالطوب والحجارة، وثمّة قبور ممحوّة من دون شاهد يدل على أصحابها، بعض حُفَر مجهّزة لاستقبال الجنائز، شعارات وآيات كثيرة تلوّن سور المقبرة، «لا تمت قبل أن تكون ندًّا» و «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون».

سارا بخفّة بين القبور، اقترب تميم من قبرٍ يعدّل سعف نخيل تظلّله، بيده كان قد ربطها إلى بعضها فوق القبر، يومها خرجت الحارة بكل أهلها، وساروا خلف النعش بالزغاريد والعويل والهتاف «بالروح بالدم نفديك يا شهيد»، وقف زياد خلف تميم ينظر إلى صورة ملصقة على شاهد القبر، فتى بابتسامته الواسعة،

يذكر كيف انهمكوا جميعًا في إلصاقها على جدران الحارة وأسوارها، قرّب كفيه إلى صدره، طأطأ رأسه، ثم مسح وجهه بكلتا كفيه، تقرفص تميم ينزع عشبًا نما في جوار القبر، لقد تكفّلا بالعناية بالقبر منذ حادثة استشهاده، نقر بيده على كتف صاحبه: «يللا قوم، فش معنا وقت»، سارا إلى أطراف المقبرة، قفزا عن السور خلف مقهى النباتات، حيث يعبر مجرى جدول نبع «عين نينه» ليصب في نهر المقطّع راويًا سهول مرج ابن عامر، عابرًا بين المقهى وسور المقبرة.

تحت أشجار الكينا العالية اعتاد الصبيّان اللقاء كلما أرادا الابتعاد عن عيون الحارة.

يجلس زياد على مقربة من مجرى الماء، بينما يجلب تميم فاصلًا معدنيًّا كبيرًا -لوح زينكو- ويغلق به مدخل عبّارة المياه ليخفِّف من تصريف المياه بالعبّارة، ويرفع منسوب مياه الجدول، يثبّت الزينكو بوضع حجارة أمام اللوح، ويمرر كفيه في الجدول متخلصًا من الحجارة البارزة والزجاجات الملقاة في قاعه.

يخلع زياد التيشيرت ويضعه وسادة تحت رأسه،

يبقى كل منهم بالفانيلة البيضاء والبنطال، يبدو تميم أكثر نحولة مما هو عليه، وأقصر من زياد، يتدرّج لونه من سمرة في كتفيه إلى سمرة داكنة على وجهه وساعديه، تنكشف الشامات المتزاحمة على بياض كتفيّ زياد، ينظر إلى امتلاءة بطنه، ويلحظ الزغبَ الزاحف على ساعديه.

يتمدَّد قُرب الضفة على ظهره، رافعًا قدمه اليسرى فوق اليمني، يسرح في أغصان الكينا الكبيرة، يراقب «أبو سعد» الذي يستوطن أغصانها بلونه الأبيض وقدميه الطويلتين وذيله المتسخ عادة، طائر المزابل كما يسميه زياد، يتبادلان السيجارة الأولى بينهما، يخفيانها في باطن كفيهما، بينما يمرِّرها أحدهما إلى الآخر «بشو بتفكّر، إيش نعمل؟» سأل تميم.

يغمض زياد عينيه مستسلمًا لرائحة خضراء داكنة مكتظة بالعشب تعشش في أنفه، يتثاءب وهو يتابع حركة طيران «أبو سعد» ما إن تحطّ مجموعة فوق الأغصان حتى تقلع مجموعة غيرها، ما زال المقهى مغلقًا حيث يفتح أبوابه في ساعة ما بعد العصر.

يزفر زياد.

- أكيد أيمن رح يحكي لجميل، وهذا ابن جاسوس إذا عرف اللي شفناه رح تعرف البلد كلها!

وأضاف مشيرًا بطرف كفه إلى عنقه مثل سكين.

- أبوي رح يخلِّص عليّ.

أخذ تميم يلف رأسه يمينًا ويسارًا لأكثر من مرة، ويراقب تجمّع مياه الجدول وارتفاعها، خلع بنطاله المرفوع أصلًا إلى ركبتيه، ونزل بملابسه الداخلية في الماء، وبينما هو يضع كفيه في قاع الجدول انتزع حجرًا من تحته وضربه بقوّة على سور المقبرة.

- أيمن صار بيعرف، وهو ساكت للآن عشان ناخده معنا، صحيح ما بعرف كل شي بس اللي بيعرفه لحاله إذا حكاه، رح يودّرنا..

ثم تنهّد وأردف:

- تنساش إنها ابتهال بتقرب لابوي، وإذا ما أخدناه معنا رح يحكي جكر فينا، حتى لو رجعت له مصروفه اللي أخدته منه.

بدت الحيرة على وجه زياد:

- معقول أبـوك وامك ما بيعرفـوا! مهو ابوك اللي أجّرها!

زمَّ تميم فمه ثم أجاب:

- أمي أكيد لأ، أبوي مـا بحكيلها هيك اشي، بس إذا أبوي بعرف، فأبوك أكيد بيعرف كمان، ولا؟

غطى الوجوم وجه زياد، طأطأ يفكّر في إخبار والده بما رآه، تردَّد وتراجع، وزياد عندما يفكّر في مشكلة فهو يفكر أيضًا في حل:

- الحـل الوحيـد، إنـه نخوفـه، نهـدِّده، وبس يجي معنـا، بصير زينا، وأبوه مـا رح يرحمه إذا عرف، لكن المهم ما يعرف كل شي.

وكيف يا فالح ما رح يعرف كل شي؟

- قبل ما يصير كل شي، نهرب..

انتصـب واقفًـا، ناظـرًا إلى صاحبه: «خلينـا نرجع عالحارة»، وبدأ بالسـير تـاركًا تميم خلفه يرتـدي بنطاله فوق ملابسه المبتلة.

٩

في المساء التقى الثلاثة أمام منزل زياد، ساروا حتى نهاية الحارة وصولًا إلى آخر بيت.

كانت مشية زياد وتميم تتباطأ كلما اقتربوا من المكان الموعود، في حين يحث أيمن الخطى، يخبُّ بحماسة، يكاد يطير.

بدت البيوت كما هي دائمًا، مصفوفة على يمين الشارع في خطٍّ مستقيم، بجدرانها الحجرية البيضاء البارزة، تنبسط في واجهاتها تلك الحدائق الفائضة بالجوري وعرائش العنب وأشجار اللوز، وحواكيرها الخلفية المتشابكة.

نظر زياد إلى الأسوار المبنية على يمينه، إلى ملصقات صور الشهداء المثبتة على الجدران، بأعمارهم المتفاوتة، بقدر ما تتعدد ألوانهم من السمرةِ الداكنة إلى الشحوب المحض. تختلف قصصهم أيضًا، بطبيعة الحال، وهو

لا يعرفُ أكثرها، لكنهم بدوا له لأول مرة مثل كائنٍ بقلب واحد وألف رأس. أحسَّ بالأعين تلاحقه، تتابع مشيته، بحلق إلى الجدار غير مصدّق عندما اختفت ابتساماتهم، وبدا له أنَّهم يعضون على شفاههم السفلى استنكارًا من فعلته. جفَّ ريقه فجأة، وأشاح إلى الناحية الأخرى.

قفز الثلاثة عن السور الصغير، كان شعار «عاشت الانتفاضة» مكتوبًا بالطلاء الأسود على السُّور ممحوًّا بالشيد الأبيض. تعثّر أيمن بغطاء مكنسة كهربائية قبل أن يصل إلى جوف شجرة التين، فأحدث البلاستيك صوت خشخشة، فرّت على أثره قطة من تحت شجرة الرُّمان إلى الشارع. كان من الواضح أن أيمن يسير وعيناه على النافذة لا أمامه، يستجلبُ في ذاكرته قصاصات صورٍ لمثلات ومطرباتٍ وعارضاتٍ عاريات.

تسمّر زياد وتميم في مكانيهما.

- فَتِّح عيونك!

نهره تميم بصوت مكتوم.

ابتسم زياد في قلبه «أجت منّك».

اختبأ الثلاثة في جوف شجرة تين عسالي، جلسوا أرضًا، انتظروا.

لم يكن في المستطاعِ رؤية غرفة ابتهال بالكامل، فالنافذة أخفض من مستوى قعودهم، وتغطي شجرة برقوق جزءًا من جانب النافذة، لكن على المرء أن يقنع بالمتاحِ أحيانًا.

حين أضاءت الغرفة همس أيمن: «بلّش الفيلم!»، مادًّا رأسه إلى الأمام، مبحلقًا بعينين كبيرتين.

رآها تدخل الغرفة، فنقر زياد بكوع يده، وأفلت ضحكة حماسية هامسة.

لم تبدل ابتهال ثيابها، إنما جفَّفت شعرها فحسب. وصلهم صوت مجفِّف الشعر، وظل زياد ينقّل نظراته بين ابتهال ومدخل بيتها الجانبي، وكذلك فعل تميم.

استلقت ابتهال على سريرها مرتدية ثوب الحمام، فانحجبت صورتها عن النافذة، همّ أيمن بالتقدم ليراها بشكل أوضح، إلا أن تميم قبض عليه بقبّة قميصه.

صاح زياد:

- بدك تفضحنا؟

- بدي أتفرج!

قال أيمن ببساطة، كأنه لا يفهم.

أفلت تميم ضحكة:

- مفكّر حاله بحضر فيلم على القناة الثانية.

أطلق زياد ضحكةً ساخرةً عالية. حتى أنَّ جمعًا من الدوري كان يحطُّ على أغصان شجرة التين، حلَّق فجأة.

- مين هون؟

صاح أبو تميم من نافذة بيته.

ارتبك الأولاد، وقف أيمن خائفًا، وشعرت ابتهال بحركةٍ مريبةٍ خارج نافذتها، والتقت عيناها بعينيّ أيمن لثانيةٍ أو أقل، ثم سرعان ما أغلقت الستارة.

ركض أيمن مبتعدًا.

بعد لحظاتٍ، توجّه تميم إلى أبيه، وتسلل زياد إلى منزله، سارا متباعدين، بخطواتٍ مرتبكة، وقبل أن يدلف كلٌّ إلى منزله، التفت أحدهما إلى الآخر، ابتسم بمكر، ثم اختفى..

١٠

في تلك الليلة، صعد زياد إلى السطح، بعد أن أنهكه ترقّب الفضيحة.

لم يتَّصل والد تميم بأبيه، لم يطرق أحدٌ بابه، لم يحدث شيء.

حتى الآن، يبدو أنه قد نجا.

لم يكن واثقًا بما لمحتهُ ابتهال، أو بما سمعته. لقد قهقه بصوتٍ عالٍ، ومن المستبعد أنَّ مجفف الشعر قد حجب صوته، لا بد أنها سمعته، وسمعه أبو تميم، ربما لم تعرفه، ربما لم تعرف أيًّا منهم.

ربما لم يحدث شيء.

ربما لا.

متأكد أنَّ أيمن لم يرَ كل شيء. كان يجدُ عزاءً في فكرةٍ كهذه، بل ويشعر بشيءٍ يشبه الانتصار «على الأقل

السر ما انكشف». لكنه شرع يتخيّل ألوان العقاب التي سينزلها به أبوه إذا سمع بفعلته. إذا لم يقيّدهُ إلى الدرابزين طوال الليل، فالأرجح أنه سيجلده بغصنِ الرمّان، الأكيد أنه لن يكتفي بحرمانهِ من المصروف والخروج إلى الشارع، لكن لا حاجة إلى استباق الأمور.

بعد مرور وقتٍ كافٍ من اللاشيء، هدأ خاطره قليلًا، وصعد إلى السطح لينشغلَ بمراقبة الحارة.

أخذ ضمّة «حاملة وملانة»، اتكأ على الحافّة الأسمنتية لسور السقف وراح يلوك حبّات الحمص الأخضر في فمهِ ويبصق القشرة في الهواء، يتأمّل تساقطها على الأرض بخفّة ريشة، ساورهُ إحساسٌ عابرٌ بالنجاةِ من أمرٍ خطير، لكنه في تلك اللحظة رأى جسدًا صغيرًا يخترقُ الليل بمحاذاة البيوت، مثل ظلٍّ يسير على رؤوس أصابعه، ولمّا أمعن النظر أكثر تيقّن من أنه جميل.

لقد رأى زياد كل شيء.

كان ابن المفيد يقف على مبعدة خطواتٍ من شبّاك ابتهال، ينحني إلى الأرض ويلتقط حصاتين، يلقي

بواحدة على الجدار المتاخم للنافذة، والثانية على حاكورة البيت، ثم يركض هاربًا.

ورغم أنه يحفظ وصايا والده عن ظهر قلب، بشأن عدم الاقتراب من ابن المفيد، أو تبادل كلمةٍ واحدة معه، «لا منيح ولا عاطل»، فإنه هرع نازلًا من السطح لكي يطارد جميل ويمزّق وجهه، بل وأراد أن يشدّه ببلوزته ويثبّته إلى جدارٍ ملطّخ بالشعارات، أن يخلع عنه بنطلونه و«يعلم عليه»، لكنه عندما صار في الأسفل، عند مدخل البيت مباشرة، كان جميل قد اختفى، وكانت فرقة من الجنود المشاة قد وصلت إلى أطراف الشارع..

تراجع زياد إلى داخل البيت، وهو يصرفُ بأسنانه ويسبُّ ويلعن، وقرّر أن يرجئ ثأره إلى وقتٍ آخر..

١١

في صباح اليوم التالي، خرج الأولاد من المدارس مبكّرًا، بتحريضٍ سرِّيٍ من معلميهم، للمشاركة في مسيرة احتجاجية ضد قيام البلدية بتقطيع أشجار الكينا من مدخل المدينة. كانت البلدية قد تذرَّعت بأن الأشجار العالية تجذبُ كثيرًا من الطيور؛ أبو سعد، والقاق، والحمام، وأبو زريق وغيرها، ما تسبب في عدم نظافة مدخل المدينة الجنوبي، الأمر الذي أثار حفيظة السُّكان الذين عرفوا أنَّ الحاكم العسكري هو من أمر بقطع الأشجار لدواعٍ أمنية، لكن المفيد لبس الأمر، ونجت أشجار كينا «مقهى النباتات» من قرار الإعدام.

ألقى زياد وتميم الحجارة على الجنود المتمركزين فوق عمارة «العِو»، ثم انفصلا عن بقية الأولاد بعد أن أطلق الجيش غازًا مسيلًا للدموع، فرًّا من حارة المصاروة باتجاه دكان أبو زياد. لكنهما وجدا المحل مغلقًا.

- وين أبوك؟

استغرب زياد غياب أبيه، فليس من عادتهِ أن يغلق المحلَّ قبل الموعد، حدسَ بوجود مشكلة، وتذكّر ما رآه ليلة أمس.

أسند ظهره إلى الجدار وأخبر صاحبه:

- إمبارح شفت جميل بيراجد على داركم، وبيهرب..

- دارنا!

احمرَّ وجه تميم، أطلق وابلًا من الشتائم.

- آه.. ضرب أكمن حجر على حاكورة بيتكم، وهرب، كنت بدي ألحقه أمزعه نصين، بس بعد ما هرب مرقوا الجيش من الحارة، وما قدرت..

واصل الولدان السير، حانقين يكيلان اللعنات على المفيد وولده. سارا في اتجاه الجبل، في الطريق رسم الاثنان سيناريوهات متخيَّلة لما سيفعلانه بجميل إذا وقع بين يديهما، وتفنّن كل واحدٍ في طبيعة العذابات التي سينزلها على ابن الجاسوس، وعند عبّارة «عين نينه»، خطرت ببال تميم تلك الفكرة:

- بدّي أضرب مولوتوف على المفيد.

وبدا ذلك مثل حلٍّ معقولٍ جدًّا، للقهر الذي يعتملُ في صدريهما.

لم يتردد زياد في مجاراة صديقه، فأولاد تلك الحارات لا يرفضون طلبًا كهذا، يثبون إليه بلا تفكير. تربيهم الحارة على أن كسر القواعد بطولة، وتمرّسهم على أن الشغب ضرورة للنجاة، فيكفي أن يصيح ولدٌ بصوت عالٍ في صف المدرسة بـ «إيبه! إيبه!»، حتى يتلقَّف أولادُ صفه الصيحة، لتخرج المدرسة بكل طلابها إلى الشوارع، أو يكفي أن يقول أحدهم «يالله انكسِّر لمبات» لتجده وأصدقاءه قد حطموا مصابيح الإنارة العامة في شوارع المدينة، أما زياد، فالرَّد عنده دائمًا:

- عليهم.

سيتوجه زياد إلى محطة الوقود القريبة، ويشتري قنينة بنزين، في الوقت الذي يجمع فيه تميم زجاجات فارغة وقطع قماش.

بلَّلاها بالبنزين، وأفرغا قنينة البنزين في زجاجتين صغيرتين، ثم دسَّا القماش في فوهة الزجاجتين، وسارا

بموازاة الجدول إلى بيارة الحمضيات المقابلة لدار البلدية.

سارا متخفيين تحت أغصان أشجار الخشخاش والليمون كي لا يلمحهما ضامن البيارة الذي يرعى الخيول هناك، ثم عبرا صعودًا إلى شارع السكة، فوق دار البلدية مباشرة، وتخفّيا عن أعين الجنود الذين يستحكمون سطح منزل جميل للمراقبة، التصقا بالسور الفاصل بين دار البلدية والشارع، جلسا على الأرض متواريين بالسور، ينتظران خروج المفيد من دار البلدية، وقد تعالى وجيبُ قلبيهما، ونتأت العروق من ساعديهما.

في لحظة مباغتة أشعلا الزجاجتين وألقياها..

فرَّ الاثنان صعودًا بين الحواكير المتشابكة حتى وصلا إلى الدَّبابة الأردنية المطلّة على دار البلدية، وقفا قرب الدَّبابة المعطوبة بحرب ٦٧ يشاهدان ما جرى خلفهما، لكنهما لم يلاحظا شيئًا، بدا أنَّ أحدًا لم ينتبه للزجاجتين اللتين لم تقطعا مسافة مترين من مكانهما، ملقاتين قرب سور البلدية، وشاهدا مركبة رئيس البلدية

تنعطف عند مقبرة دير اللاتين صعودًا إلى حارتهم، رغم فشـل العملية، اطمئنا أنَّ أحدًا لم يلاحظ الأمر، ثم تابعا السير شمالًا حتى وصلا إلى البيت.

١٢

لنعد أيّامًا إلى الوراء. إلى حادثة السروة.

في ذلك المساء، تكدَّس سكّان الحارة في الشارع، يراقبون الجنود وهم يجبرون أبو تميم -بعد أن أنزل ابنه العلم- على محو شعارات الانتفاضة المكتوبة على الجدران بطلاء الشيد الأبيض، وبعدها يصعدون الدوريّة وينصرفون، وتابعوا سيارة البلدية التي تغادر نزولًا، والعلمُ هامدٌ في صندوقها.

هامدٌ مثل هزيمةٍ ماحقة.

اخترقت المركبات التجمّع البشري الذي تشكَّل عندما تسلّق تميم السروة. من بين تلك المركبات، كانت «المرسيدس السوداء» سيارة المفيد، تقطع الشارع، حيث يجلس جميل في المقعد المجاور لوالده.

ومن بين جميع الرؤوس المحيطة بالمركبة، لمح جميل

زياد يلقي حجرًا نحو المرسيدس، ثم يرفع وسطاه بينما السيارة تبتعد شيئًا فشيئًا.

زمَّ جميل فمه، نظر إلى والده، ثم أشاح إلى النافذة محاولًا إخفاء ابتسامة نبتت على وجهه.

لم يتوقف المفيد عن القيادة رغم الدَّوي الذي أحدثه ارتطام الحجر بمؤخرة السيارة، اكتفى بالنظر إلى مرآة السيارة، ومتابعة القيادة كأن شيئًا لم يحدث.

بعدها، اتجهت المركبات إلى بيت المفيد.

- اتفضل.. اتفضل سيدي.

قال المفيد، دافعًا باب منزله بكلتا يديه: «مرحبًا بالكابتن أسد في بيته، اتفضل..».

لم ينتبه المفيد لابنه الذي احمرَّ وجهه، لم يلحظ احتقانَ عينيه، ولا اتساع منخريهِ، ولا تسارع أنفاسه.

دخل الضابط مشيرًا إلى جندي لمرافقته، فرغم كل ما يظهره المفيد من حفاوة وولاء، فإنه ما من ضمانة لسلوك فلسطيني قادر على تلقيم المسدس، حتى لو عمل تحت إمرته، أو خصوصًا إذا كان كذلك، وهذا أمر غير مريح بالنسبة إلى كابتن أسد.

«ارتاح هون يا سيدي، صدر البيت إلك». جلس أسد على المقعد الواسع، متباهيًا كطاووس، واضعًا ساقًا فوق الأخرى.

ما زال جميل يقف عند الباب، يدير نظراته بين والده والضابط.

ابتسم أسد للصبيِّ وقال:

- كويس إنك مش متل أولاد اللي بيعملوا مشاكل، هيك بكون مستقبل منيح إلك حبيبي..

خاطبه بعربيةٍ مكسَّرة، ثم التفت إلى والده:

- هي جينا على شانك حبيبنا، وشلنا العلم إللي مزعجك.

حدق جميل إلى أبيه وهو يصبُّ الماء البارد المنقوع بشرائح الليمون لضيفه، كان وجه الصَّبي قد شحب تمامًا، فاتحًا فمه من دون أن ينبس بكلمة، كأن جبل أبو ظهير كله قد أطبق على صدره.

أراد جميل الهروب إلى الحارة، لكنّ خوفه من الأولاد دفعه إلى سطح المنزل. وقف عند الجهة المطلّة

على الحارة، مبتعدًا قدر الإمكان عن الجنود الجالسين في الجهة المقابلة، مرّر له جندي كرةً يلهو بها وقال: «امسك خبيبي طابة»، لكنه لم يكترث، بقي شاردًا، ينظر إلى الحارة بعينين مبتلّتين، ثم لمح زياد يقف على سطح منزلهم، وتميم في ساحة بيتهم يلعب مع أبيه، وضع رأسه فوق ساعديه على حافّة السطح، اهتزّ رأسه وانتشرت قشعريرة في أرجاء جسده، ولم يحدث أن تمنى طفل الموت، كما تمناه جميل في تلك اللحظة.

بعد أن غادر ضابط المخابرات، جلس المفيد يتابع نشرة الأخبار المسائية باللغة العبرية التي يتقنها جيدًا، وبعيدًا عنه جلس ابنه ساكتًا.

كان الصبيُّ يعرف أنه يستطيع الحديث مع والده في كل شيء تقريبًا.

تقريبًا.

اللعنة على تقريبًا.

لقد وفَّر له والده كل ما يمكن أن يعوّضه عن صبيةٍ لن يكونوا لساعة واحدة أصحابه. كأنَّ الأمر يجدي. لم يغلق المفيد بابًا في وجه ابنه يومًا. لقد أصغى إلى كلّ ما

يريده، علّمه السباحة وركوب الخيل، واشترى له لعبة أتاري، إلا أن الصبيَّ يعرف أنَّ هناك طلبًا واحدًا لن يجرؤ على طلبه من أبيه، وهذا الطلب وحده، ولا شيء غيره، هو ما يريده الفتى: أمه.

انتبه المفيد لشرودِ ابنه، لاحظ آثار الدَّمع الجاف على وجنتيه، ما من أحد في هذا البيت سواهما الآن، منذ أن هجرته زوجته التي لم تحتمل البقاء في البيت ساعة أخرى، بعد أن اخترقت رصاصة نافذة غرفة نومها. لم تجزع من الرَّصاصة التي حفرت سقف الغرفة، بقدر ما ذعرت حين رأت المفيد يطلق النار من النافذة، في تلك اللحظة فقط، تحوَّلت الشكوك التي تهامست بها النسوة عن زوجها إلى حقيقة أمام عينيها، حملت ابنها النائم بين ذراعيها ولم تعد، وفي صباح اليوم التالي، كان والدها واثنان من إخوتها يلقون بالصغير بين يدي والده:

«خذ لحمك الوسخ.. ما بيلزمنا».

لم يستطِع المفيد تجاهل صمت ابنه، فهو يحدس بما في خاطره لكنّه لا يملك له جوابًا شافيًا، ولعل المفيد

الذي لا يخشى شيئًا، كان -في تلك اللحظة- خائفًا من ابنه.

- جيبلي كاسة مي يابا.

سار جميل إلى المطبخ، تناول كأسًا من الخزانة، وزجاجة ماء من الثلاجة، صبَّ الماء، وقبل أن يغادر المطبخ بصق في الكأس.

أحسَّ بالرضا وهو يرى والده يجرع الماء كله، حتى أنه لم يستطِع إخفاء ابتسامته.

١٣

أحسَّت ابتهال نفسها مثل عصفورٍ يُحبس في قفصٍ للمرّةِ الأولى.

بمجرد أن غادرها أيمن، صارت تحوسُ وتجولُ في البيت، باحثة عن شيء تبطئ به تسارع أفكارها؛ قلقها الكاوي، الرُّعب المطبق. أخذت تتنقَّل بين الغرف، تطوي الغسيل، تفردُ الشراشف، تُملي على بيسان سطرين لاختبار الإملاء، ثم تدلف إلى المطبخ لتعيد ترتيب المؤونة؛ مرطبانات الزعتر واللبنة المدوَّرة في الدفَّة العلوية، لكيلا تطالها يد الطفلة، والملوخية الناشفة والميرمية والعدس في دفَّة الخزانة السفلى.

أحسَّت بقلبها ينقبضُ، بين لحظةٍ وأخرى كانت تحدّثُ نفسها: «كيف بغلط هيك غلطة!»، تكاد لا تصدّق أنها أمضت كل هذه الأيام، تستبدل ثيابها من دون إغلاق الستائر. وكانت كلما أمعنت في تأمّل

الأمـر، تفاقم خوفها: «هـذول أولاد، أكيد حكوا لكلّ الحـارة».

أحسَّـت نفسـها تقف عارية عـلى تقاطـع جبل أبو ظهـير، أمام أعين الجميع، وشـعرت بأنَّ كل العزلة التي ضربتها حول نفسـها قد ذهبت سـدًى، فلم تنفعها شبه القطيعة التي اصطنعتها مع نساء الحي، ولا منعها لابنتها من مخالطة قريناتها من البنات، ولا امتناعها عن الخروج للتمشي في ساعات المساء، ناهيك عن اعتذارها عن تلبية دعـوات الجارات، أو حتـى دعوتهن إلى بيتهـا. تذكّرت كيف مرّ الوقت سـياطًا عـلى جلدها، وكم أحرجت من عدم دعـوة أم زياد لزيارتها، كـما تقتضي الأصول، حتى ذهبـت المـرأة إلى دعوتهـا مرة ثانيـة علّ ابتهال تسـتذكر ذلك، لم تلـبِّ ابتهال الدعـوة وأدارت ظهرها للجميع. «كيف بتغلطي هيك غلطة يا ابتهال! شو بدّي أحكيله؟ نسيت أسكّر الستارة؟!».

ثـمَّ حسـمت أمرهـا؛ سـوف تخبر أبـو تميـم بالذي عرفتـه مـن أيمن، علَّه يجـد حلًّا يعفيها مـن الانتقال إلى بيتٍ آخـر، فقد تعبت من التنقّـل المزمن: «بدك اتضلك

متـل ولاد البسـة يا ابتهـال؟»، قالت في نفسـها، عليّ أن أخبره، فقد قال لي أيمن إن تميم وزياد وحدهما شاهداها «إيش شافوا، ومتى؟»، لا بد أن يتصرّف أبو تميم.

لم تهدأ ابتهال تلك الليلة، فهي لا تستطيع التواصل مـع أبو تميم، مـن دون أن تلحظ أم تميم ذلـك، وأم تميم «تتفـوَّق عـلى مخابـرات الاحتـلال» إذا مـا تعلَّـق الأمر بامرأة، على حدّ تعبير أبو تميم شخصيًّا:

«أوعـك أم تميم تحسّ بإنه بينا إشي ما بتعرفه، تراها بتحطّ كابتن أسد بجيبها الصغيرة».

ولتخبر أبـو تميم بما حدث، عليهـا أن تنتظر حلول الصباح. في طريقها إلى عملها ستمرُّ أمام دكان أبو زياد، وسـيكون عليهـا أن تلفـت انتباهه مـن دون أن تكلّمه، ستلقي عليه السلام كأي جارة تمرّ بالسوق صدفة، لكنه سـيفهم أنَّ ما مـن صدفة في الأمر، مؤكّد سـوف يفهم. سـوف يخبر أبـو تميم بأنهـا جـاءت، وسـيتوجّه أبو تميم فـورًا إلى عيادة صحة وكالة الغوث ليحصل على حبوب مـرض الضغط، وعند شـبّاك الصندوق، سـتخبره بكل شيء.

حدث الأمر كما خططت ابتهال.

حدس أبو زياد بحدوثِ أمرٍ ما، بمجرد أن رأى ابتهال تعبر أمام دكّانه، وسمعها تسلّم عليه، ورأى الخوف في عينيها.

كان يعرفُ أنَّ طريقها إلى وكالةِ الغوث من جهة أخرى، أنَّ خطبًا قد حدث.

أومأ أبو زياد، وهزَّ رأسه.

مدَّ يده وأدار قرص الهاتف متصلًا بأبو تميم.

صاحبه أيضًا حدسَ بكل شيء:

«طيب بمرق عندك وأنا نازل ع السوق».

جاءهُ فورًا.

لم يخطئ إحساس أبو تميم، لم تكن مكالمة أبو زياد عاديَّة، رغم تشابهها مع أكثر المكالمات التي يجريها الجاران، أو الصَّديقان منذ الطفولة.. ما تبقى من شلة الأربعة، لو أنَّ الزمن لم يفعل أفاعيله.

الزمن؟ لا، ليس الزَّمن.

الاحتلال فحسب.

خرج أبو تميم ماشيًا صوب السوق، لم يكد يخطو نزولًا من باب بيته حتى توقف بجانبه جار بمركبته وناداه: «اطلع يا جار»، كما يحدث غالبًا. نزل أبو تميم عند سور المقبرة، «هون بكفي يا جار.. يخلف عليك»، تابع سيره إلى دكان أبو زياد.

- هلا بجار الرضا، زارتنا البركة عالصبح.

بادر أبو زياد بصوت عالٍ ما إن لمح أبو تميم يطل من أول الشارع: «الله يكّبر واجبك»، ردّ الأخير، وحين صار بقربه تابع بصوت خفيض:

- شو بدها البركة اللي زارتك الصبح؟

نظر أبو زياد إلى جانبي الشارع وهما يدلفان إلى الدكان:

- روح شوفها وطمنّي..

غادر أبو تميم فورًا إلى عيادة وكالة الغوث، ودّ لو بمقدوره أن يركض.

١٤

عند الظهيرة، وصل أبو زياد إلى ساحة بيت صاحبه، فهو لم يحتمل الانتظار أكثر، جلس الاثنان في ساحةِ البيت، تهامسا قلقين وهما يتساءلان عمَّا يجدر بهما فعله. دخَّنا بشراهة في ذلك النهار، فامتلأت المنفضة حتى آخرها، وتساقطت أعقاب السجائر على الأرض حول الكرتونة التي حوَّلاها إلى طاولة. تسمَّرا جالسين على كرسيين متهالكين من البلاستيك، بين الأجهزةِ الكهربائية والأثاث المستعمل.

بدأ الأمر بما همس به أبو تميم:

- الأولاد.

- الأولاد! مالهم الأولاد؟ فهِّمني يا رجل.

تنهَّد أبو تميم:

- ابني وابنك بتلصصوا على المرة من شباك غرفتها، وقبل يومين ماخدين معهم أيمن..

اتسعت حدقتا أبو زياد:

- شو اللي شافوه؟

كانت عيناه تقدحان، شرايين يديه تنتأ تحت جلده، يغلي فيها دمه ويفور في عينيه.

- طوّل بالك عليّ، ما بتعرف إيش شافوا وإيش ما شافوا، إحنا اللي بدنا نعرف من ولادنا شو شافوا.

سكت ثانية ثمَّ أردف، وعلى ثغره ابتسامة صغيرة:

- إذا بس شافوها بتبدّل أواعيها بتكون الشغلة بسيطة.. يعني انبسطولهم شوي.

لكن سرعان ما اختفت ابتسامته حين نظر إليه صاحبه بطرف عينه ونهره:

- سد بوزك هس مش وقت نغاشتك.

تناوشت الأفكار في رأس أبو زياد، أخذته شرقًا وغربًا، رأى نفسه معلّقا في زنزانة التحقيق، تخيّل جيبات

عسكريّة وجنود يطبقون على الحيّ، صار ينفخ ويتأفّف ويحوقِل، يمسح جبينه براحته، اهتزت ساقه اليسرى. وضع أبو تميم يده على ركبة صاحبه حتى يوقف ارتجافها، نظر إلى وجه أبو زياد فازداد وجهه احتقانًا:

«إذا سألت الولد رح تعرف أمه، وهاي مصيبة».

زمَّ أبو زياد شفتيه:

- أنا بتصرَّف وبقلّك شو شافوا.

يعلم أبو تميم، أن صاحبه قادر على كتم السر في بيته؛ «السر عند أم زياد ببئر، وعند أم تميم بنافورة»، ورغم ذلك فإن قلقًا من ذيوع الخبر ظل يأكل جوفه، وإن أسوأ ما قد يحدث على الإطلاق، أصبح ممكن الحدوث، وهو أن يبلغ الخبر المفيد.. سرت قشعريرة في جسده، فأبو تميم يعرف أن الأولاد يتباهون فيما بينهم باكتشافاتهم السريّة، ورغباتهم المحتدمة، وفضولهم الجامح، وهذا يعني أن ما يعرفه جميل، سيعرفه أبوه:

- العرص.. رح يطربق الدنيا على راسي إذا عرف.

لم يقوَ أبو تميم على كتم مخاوفه، أغمض عينيه وقالها مستسلمًا:

- معقول يكون وصله الخبر؟

تأفف أبو زياد:

- هذا اللي شـاغل بالي، بتوقع لو عرف المفيد هيك خبر.. أكيد رح تلقاه واقف قدامك، هذه فرصة ما بيضيِّعها.

في تلك اللحظة، سمع الاثنان طرقًا عاليًا على بوابة البيت الرئيسية، ارتجف أبو تميم: «الله يستر».

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٥

عندما فتح أبو تميم باب البيت، وجد المفيد في انتظاره.

فبعد أن طلعت المرسيدس إلى جبل أبو ظهير، توقفت ببابِ منزله.

طرق المفيد البوابة العريضة خابطًا عليها براحته، فهو يعرف أن أبو تميم موجود في ساحة المنزل بين أجهزته المستعملة، لأنَّ المفيد هو الذي فتَّح بنفسه الأبواب أمام تجارة أبو تميم هذه، يومها قال له أبو تميم منتشيًا: «والله وطلع منك إشي مفيد يا عرص!»، ومنذها أصبح «المفيد» لقبًا على لسان أبو تميم حتى شاع على الألسن.

كاد حاجبا أبو تميم يلتصقان بغرّته من شدة الذهول:

- العرص بجلالة قدره جاي عندي! فوت فوت..

تركه واقفًا خلفه على الباب.

- فـوت فِش حد غريب عنك.. هـذا أبو زياد اللي هون.

تبعـه المفيـد وطرق الباب خلفـه محدثا دويًّـا مبالغًا فيـه، وقد تغضـن جبينه. وجدهمـا، أبو تميـم وأبو زياد، يقفان في وجهه شاحبين.

- مالكم التنين زي اللي شفتوا عزرائيل فجأة؟

- أهـلا بالمفيـد، مالك معصِّب، كأنك غشـيم عن ثقالة دم أبو تميم.. اقعد اقعد.

جلس أبو زياد وهو يردّد:

- أقعد يا رجل واتفرفد.

- آه اتفرفد وارتاح، ما انت «شبير البلد».

قـال أبو تميم، متعمدًا قلب الكاف إلى شـين ليقولها بلهجة ريف الشمال، مسقط رأسه.

- أجّلوا مسخرتكم لبعد ما أطلع.

قال المفيد بحسمٍ أسكت كليهما، وأردف:

- ومش جاي أتمارا فيكم، مرآة وجوهكم حافظها عن غيب، بس إكرامًا للي بينا.. للعيش والملح.. لأيامنا الخوالي، إذ بدكم، ديروا بالكم على ولادكم، ما بهون علي يصيبهم مكروه، ومنيح إنك هون يا أبو زياد عشان تسمع مني، ولادكم مثل ابني، بمعزته وغلاوته.

لم يتوقف المفيد عن تذكير صديقيه القديمين، أبناء حارته، ورفقة الطفولة والشباب، بما كان بينهم من صحبة غابرة، وأنه لم يكن بين الثلاثة فارق، بل الأربعة بالأحرى، وأنهم لبسوا ثياب بعضهم، وأن أمهاتهم لم تكن تفرق بينهم ولم يفرّقوا هم أيضًا بين الأمهات، وكلّما استرسل المفيد بكلامه مندفعًا، جهرًا، أطبق الصَّمت على الرجلين، وقد زاغت نظراتهما، تفصد وجه أبو زياد عرقًا، نظر إلى أبو تميم بطرف عينه فوجده قد ابتلع لسانه، شرد يبحث عن حجة، مخرج، فهو يعرف كل ما قاله المفيد عن ماضيهم وأكثر، لكّن أمرًا واحدًا لم يحسب حسابه، أن يعرف المفيد ما يخفيانه.

قرر أبو تميم أن يستثير المفيد ليظهر مقاصده:

- شو مال دينك فايت علينا بالصوت، طول مسدسك وطخنا من مرة، احكي عِدِل، مين دعس ع ذنبك بساعة هالظهر؟

حدّق المفيد إلى عيني أبو تميم، قرّب رأسه منه حتى لامست أنفاسه وجهه:

- هاي آخر مرة بعمل فيها شان للعِشرة، ضب ابنك انت واياه بلاش يرجعلك مخزّق، قبل شوي ضربوا على البلدية مولتوف، قصدهم يضربوها عليّ أنا، كانوا بعاد عني والقزازة وقعت بعيد وما حد حس فيها غيري، هاي المرة، شفتهم وعملت حالي مش شايف، بس بشرفي المرة الجاي ما بتمرق بخير.

شعر أبو زياد بأن أنفاسه قد عادت إليه عندما عرف بما أتى بالمفيد في هذه الساعة.

أطلق تنهيدة راحة.

استعاد أبو تميم ابتسامته الساخرة، وقبل أن ينهي المفيد كلامه تصدّى له أبو زياد، وكان قد استرد هيبة صوته الجهوري:

- قلتلي بشرفك آه، طيب احلف بشيء موجود عالأقل..

أطلق ضحكة ساخرة ثم أردف:

- اسمع ولى شو بدي أقلّك منيح، إذا انت زلمة من ظهر زلمة طب بولد من الأولاد..

عرف أبو تميم أن الاثنين سيتعاركان في بيته، فلا أحد منهما يقلُّ بأسًا عن الآخر، ولكلٍّ منهما قلبٌ لا يعرف الخوف، فإذا كان المفيد قد تبنى في شبابه قول: «الخوف قوّادٌ فحاذر أن تخاف» وعمل مع أسد علنًا ومن دون مواربة، فإن أبو زياد قد عاش حياته مردّدًا عبارة واحدة: «كل ما تخاف من إشي إهجم عليه» ولهذا السبب تحديدًا قضى جلّ سنوات شبابه معتقلًا في سجون الاحتلال. كان لا بد من أن يطفئ أبو تميم الشرَّر الذي تطاير من عيونهم:

- طولوا بالكو يا جماعه الخير، صلوا عالنبي، مقدرينلك جيتك يا أبو جميل، الله يحفظلك إياه، أخوك أبو زياد من يومه يقاتل ذبان وجهه، إنتو مش غشيمين عن بعض، ياما دفنتوه سوا..

نخر أبو زياد:

- ما إنت شايف كيف فايت علينا مستأسد، كُنّا قاعدين بأمان الله، لا في ذبان ولا نحل.

رفع أبو تميم كفه في وجه أبو زياد ليسكته، وابتسم في وجه المفيد متابعًا كلامه.

- بدك اتطول روحك عليهم يا خوي، ولاد وبلعبوا.. بدهاش القصة تشدع حالك هيك، هدول ولاد جهله بشوفوك دايرمع الجيش بفكروك منهم..

ورغم أنه قال العبارة الأخيرة بنبرة ساخرة، متبوعة بابتسامةٍ خبيثة، إلا أنه أردف سريعًا:

- بمزح معك، بدي أطري الجو يا رجل، هس بشرفك بتفكّر مين اللي مانع ولاد الحارة عن ابنك؟ مهو لولا أبو زياد منبّه عليهم واحد واحد والا كان زمان فرمولك إياه.

نظر المفيد إلى وجه أبو زياد مع سماعه حديث أبو تميم عن ابنه، بعين النِّد للنِّد، لكن إحساسًا مفاجئًا بالامتنان طغى على قلبه. وقف بقامته الطويلة وبنيته

العريضة مثل بغل، سار صوب البوابة العريضة، من دون أن يلقي السلام.

- بدري يا أبو جميل الشاي عالنار..

ولمّا أردف أبو تميم «بدري يا رجل»، كان المفيد قد طرق الباب خلفه.

أمسك أبو زياد رأسه بكلتا كفيه، وزفر هواء ساخنًا وهمس:

- الحمد لله..

ونهض من مكانه:

- أنا في البيت إذا صار إشي إبعتلي.

وغادر مستعجلًا.

١٦

- الغـدا بـدو شـوية وقـت، مـا قلتلي إنـك مروح بدري.

قالـت أم زيـاد، بنبرة يشـوبها التوجّـس، وقد هبط قلبهـا بمجـرد أن رأت وجـوم ملامحـه، خاصـة عندمـا تابع سـيره إلى غرفة النوم من دون أن ينبس بكلمة. بدّل ثيابه، ثم عاد على الجلوس على مقعده في غرفةِ الجلوس، وأحسَّ نفسه قاعدًا على جمر.

عـزَّ عليه أن ابنـه يتلصص على النسـاء، ولا يراعي حُرمـة البيـوت، أنـه يتفـرَّج على امـرأة تبـدل ثيابها، بل ويدعـو أصدقـاءه إلى رؤيتهـا، لكنـه أيضًـا ظـلَّ يقلّبُ الأمر في رأسـه: هل رأى الأولاد شيئًا آخر؟ وهل عرف المفيـد؟ لـو عرف لما فـوّت الفرصة، لا يمكـن أن يكون قـد تحجَّج بقصة المولوتوف وسـكت عن الشيء الآخر، حتى لو أراد المراوغة.. لو عرف بالأمر لم يكن ليغضب،

بل سيبتهج ويقيم عرسًا، سيلقي بأبو تميم في السجن، ويطلق الإشاعات ويغذّيها بجواسيسه، ويضغط أبو تميم إلى أن يمد المفيد بنفسه يده لإنقاذ أبو تميم، ولن يتردد في الطلب منه بالعمل معه بعد ذلك.

هدأ باله لهذا الاستنتاج، ولكن أيعقل أن يكون التزامن مصادفة؟ فكّر؛ ما من مصادفة في هذه البلاد، إنها يد الله، قال، واطمئن إلى أن الله يرى الأمر ويدبّره، لكن الهدوء لم يصِب أم زياد، فنفد صبرها مع شروده، لم ينتبه إلى أنها تجلس إلى جواره تبحلق إليه، وحين تمتم: «الله يجيب اللي فيه الخير» فلتت بوجه: «آمين يا رب، بس شو في، مالك؟»، زم شفتيه، هز رأسه: ابنك شاغل بالي، وأخبرها بأن المفيد جاءه متوعدًا، بعد أن رأى زياد يلقي المولوتوف على سيارته، وأنه لخاطر الأيام الخوالي جاء محذرًا فحسب، الله يخلخل عظامه، تنهدت أم زياد، تعرف أن الولد شقي، مثل الزئبق يتنقَّل من مكان إلى مكان، معلش يا أبو زياد لا تشغل بالك، شقاوة ولاد، احكي معه، زياد بسمع الكلام منك، إنت مش غشيم عن ابنك، طالعلك الله يرضى

عليه، ناسي حالك شو كنت تعمل.. وتبسّمت ابتسامة المتواطئ، كاتم السر.

عرف زياد أن مصيبة حلّت فور وصوله إلى البيت، وجد والديه صامتين في غرفة الجلوس، فكسر لحظة الصمت: «السلام عليكم» وخطى خطوة واحدة ليصير قرب أمه، «عليكم السلام»، أجابته، وقامت إلى المطبخ.

بقي زياد واقفًا يجيل عينيه في المكان: التلفاز، مدفئة الحطب، برواز الخيول المعلقة على الجدار، تقابلها صورة والده في شبابه معلقة في صدر الغرفة بإطار خشبي داكن. مرر عينيه على كل ما احتوته الغرفة من أشياء، ولم ينظر إلى والده، لحظة الصمت كفيلة بأن تُسقط ركبه.

- روح اقطع رفّاع رمان وجيبه.

قال أبو زياد، بهدوءٍ مروّع.

- ليش شو عملت.. والله ما عملت إشي!

انهمرت دموعه فجأة، ونظر إلى أبيه يستجديه قبل أن يتحرك من مكانه، يابا شو عملت. «روح جيب عصا رمان بلا ما اذبحك»، لكنّ زياد لم يستطِع الحراك، تفرّز ذعرًا، فكّر في كل الخطايا التي اقترفها؛ «يابا والله ما بعود

أدخّن، بوعدك ما بصيبه»، لم يجد غير ذلك اعترافًا يقدّمه، لم يخطر بباله شيء آخر يمكن البوح به، أوجعته أسراره الصغيرة، ودّ لو يتبرأ منها كلها، كان عالقًا وهشًّا، مثل حلزونة خرجت من قوقعتها، هوت يد والده بصفعة قاسية على وجهه، أطاحته أرضًا، سمعت أم زياد صوت الصفعة وارتطام ولدها بالأرض، ونحيبه المذعور، خرجت تركض من المطبخ، وصلت فوجدته بين يدي والده، يضربه بالحزام ويصيح عليه، خافت على الولد، لم يكن زوجها قاسيًا على أولاده، وإن أظهر لهم ذلك، تعرف أنه لا بد من يد حاسمة تقبض عليهم كي لا ينزلقوا في فخاخ الشوارع، لكنها لم تشاهده هكذا من قبل، شاهدت أثرًا للصفعة على وجه الولد، وأثر الحزام على رقبته، تدخّلت، وقفت بينهما، خلّصت الولد من بين يديه، فرّ إلى غرفته وأغلق الباب وراءه..

عاد أبو زياد إلى مقعده: «تفو عليك ولد ساقط».

عرفت الأمُّ أن الأمر ليس كما ادعى زوجها، لا ينفعل أبو زياد، لا يضرب، حين يُقدم أحد الأولاد على فعل كهذا، ينهرهم، يوبّخهم، يحذّرهم، يخشى عليهم، ولكنه

في باطنه يحتفي بما عندهم من مشاغبة، فهو لا يعدّهم فقط لمواجهة الحياة، وإنما للاشتباك معها.

لم يلتفت أبو زياد إليها، تركها وسار إلى غرفة ولده، وما زال الحزام بيده، دق الباب. «افتح بلا ما اكسره على راسك»، قال.

فتح الصبيُّ الباب واندفع إلى الخلف ملتصقًا بالجدار، أغلق الأب الباب خلفه.

وقف زياد ينظر إلى والده، يضع كفه اليمنى على كتفه الأيسر، يغطي انتفاخًا زهريًّا يظهر من فتحة ياقته، جلس أبو زياد على حافة السرير، تأمل ابنه: «تعال، قرّب هون»، اقترب الفتى بخطى مرتجفة.

خفض الأب صوته:

- إيش بتروح تعمل ورا بيت ابتهال؟

تجمّد زياد في مكانه، اتسعت حدقتاه، تلعثم، عرف أن غضبة والده ليست بسبب المولوتوف، جثا على الأرض، أقسم إنه لم يقصد التلصص على ابتهال، «وطّي صوتك» همس الأب: «احكيلي كل شي صار، بدون كذب».

- كنّا بنلعب، بدنا نحط راديو خربان بنص الشارع قدّام سيارات الجيش، نجننهم، شفنا ابتهال بالغرفة والستارة مفتوحة.

قطَّب الأب جبينه:

- بتتلصص على بيوت الناس، بدك الناس تتلصص على أمك وخواتك؟

أجهش زياد:

- يابا والله ما تلصصت، لما شفتها هربت..

أمعن الأب النظر في وجه ولده:

- لمين حكيتوا؟

- ولا حدا، ولا حدا.. أيمن عرف لحاله، وعشان يسكت أخدناه، وبس وصلنا هناك أنا وتميم صرنا نطلع صوت بالعمد حتى تنتبه ابتهال وما يشوف إشي، كنا خايفين إنه يحكي إذا أخدناه.. بس ما شاف إشي. والله ما شاف إشي!

أطرق أبو زياد، فكّر في سؤال الصبيّ عمَّا يشغل باله، وعرف زياد تحديدًا ما يشغل بال والده، عرف أن

لوالده يدًا في تدبير الأمر، كان كلاهما قد فهم الآخر من دون أن ينبس بكلمةٍ أخرى.

ودّ الصبي لو يخبر والده بكل شيء، لكنّه لم يفعل، وعرف الأب أن ابنه يصدقه القول، كما يصدقه الصمت أيضًا، وأنه لم يبُح بكل شيء، فهدأ باله، لم يسأله عمَّا يدور في رأسه مباشرة، وزياد أيضًا لم يجبه على السؤال الذي يعرف أنه يدور في رأس أبيه، لكنّه لم يسأله.

- ما تروح هناك، وما تحكي لحدا شو شفت أو مين شُفت.

وانتهى الأمر عند هذا الحد.

١٧

صعد زياد إلى السَّطح من دون أن يتبادل كلمة مع أيٍّ من أشقائه، لم يراجع دروسه في المساء، لم يتناول مقلوبة الباذنجان مع العائلة، بل وحيدًا في غرفته وبتواطؤ من أمه. لم ينادِهِ والده كما يفعل عندما يرفض تخلّف أحدٍ من صغاره عن الغداء، ولا حتى من باب: «اقعد معنا وما تاكل».

لقد أعتقه هذه المرَّة.

لم يمانِع.

واقفًا في السطح، أرسل عينيهِ في المرجِ الفسيح الذي ترامى أمامه، ممتدًّا إلى أطراف الجبال البعيدة، مخضرًّا كما ينبغي، واعدًا بحصاد وفير، تنشَّق هواءً رطبًا وزفرَ بارتياح. لمح تميم يخرج إلى باحةِ البيت، يرفع عينيه إلى أعلى، لأنه يعرفُ أنه سيجدهُ هناك.

أشار إليه تميم بأصبعيه متخذًا علامة النصر، وعرف زياد ما يعنيه ذلك، فهو أيضًا رغم ما ذاقه من عقاب لم ينبس بشيء، لم يفشِ سرًّا.

ظهرت على تميم آثار عقاب والده، وجهه المدبّغ، قميصه المفتوح، كفّه التي تحك رأسه من الخلف. لم يكن في الأمر مفاجأة. فما يحدثُ في بيت زياد يتناضحُ سريعًا، إلى بيت تميم.

رغم الكدمات والرضوض التي تلطَّخ بها جلده، كان في وسعهِ أن يبتسم، وأن يمتلئ قلبه بالحبّ إزاء أبيه.

برَّر زياد لوالده كل ما فعله، ودّ لو يحتضنه، ويخبره أن بامكانه الاعتماد عليه، انتشى فخورًا لأن أباه هو من يقف خلف السر الذي أقسم وتميم على حفظه حتى النهاية، فثمّة أسرار تبقى أسرارًا، حتى لو عرف بها أكثر من اثنين، أو ثلاثة، أو عشرة، أو ألف.

نظر إلى المدينة، وفكّر في أنَّ كل فتية الحارات يعرفون بالأمر ويخفونه، في تواطؤ ضمني متفق عليه منذ الأزل في مواجهة الاحتلال، كما يفعل الأولاد مع أول

صيحة «إييه» تنطلق في المدرسة، أو كما ينكرون معرفتهم بمن يخطُّ الشعارات على جدران الحارة.

وإذا ما رأوا ملثّمًا يزور زوجته في السرِّ وعرفوا هويته، فاللثام ضروري لحماية الملثّم ممن لا ينتمي إلى المدينة، أما جنين، فهي تعرف أولادها من أنفاسهم..

١٨

مرَّت خمس عشرة سنة على رحيل زياد، لكنه، مثله مثل أغلب أبناء تلك الحارات، لا بدَّ أن يرجع.

ترجَّل زياد من سيارة الأجرة عند سور المقبرة، وتأمَّل مجرى عين نينه وقد نبتت مكانه عمارات تجارية شاهقة، لم تبقِ للجدول من أثر، صعد الجبل مشيًا، ولاحظ كم كبرت المقبرة، وقد تبدّلت الشعارات المخطوطة على سورها إلى عظات دينيّة، عن الموت والحياة والآجال، وقد امتلأت المقبرة بالأشجار الباسقة. وجد ملصقاتٍ كثيرة لشهداء لا يعرفهم، وفتية لم يلتقِهم أحياء، ثمّة مدرسة بدلًا من حاكورة الزيتون المشاع، وعمارة سكنية بواجهة بيضاء من ست طبقات في حاكورة دار أبو تميم. تذكَّر أن أبو تميم قد استشهد برصاصة قنّاص أثناء الاجتياح، تمتمَ يدعو له بالرَّحمة، وفكَّر في كل الأجهزة الكهربائية التي تكدَّست في باحةِ منزله.

لم يرَ بيت أبو تميم صغيرًا كما بدا له لحظتها أمام العمارة الجديدة المبنية إلى جانبه، صار فوق بيتهم جيران جدد، حيث بنى والده طابقين إضافيين واستقبل مستأجرين.

لقد تغيَّرت الحارة.

وقف في وسط الشارع، لم يعد للسروة من أثر، وأحسَّ بالفقد ينخرُ جوفه. تأمل المكان مثل غريب يبحث عن معالم أُلفته، لم تعد الحواكير متداخلة، فقد فصلت بينها أسوار أسمنتيّة، ونهضت فيها أبنية حديثة بالحجر الأبيض.

توقف عند بيت المفيد، وجده مهجورًا، مليئًا بثقوب الرصاص، مغلق النوافذ والأبواب، وقد خطَّ الفتية على جدرانه شعارات الحريّة بصبغ الرش الأحمر والأسود. كان يعرف أن المفيد قد قُتِل، وقد ذاع خبر مقتله، حين عُثر على جثته في رأس الجبل، قيل إن كابتن أسد تخلّص منه قبل أن يخرج الاحتلال من المدينة، وقال آخرون إنَّ فدائيًّا مطاردًا تتبّعه وقتله.

هل يكون هو؟

تذكَّـر في تلـك اللحظـة ابن المفيـد بجسـدهِ القليل يتسـلل في الليـلِ ليلقـي الحصى عـلى شـبّاك ابتهال، هل كان يعرف؟ ابتسـم. كلُّهم كانـوا يعرفون، لم يخطر له في تلـك الأيام أن جميل كان يحـذِّر ابتهال من مجيء الجيش. مـا زال غير متأكد، لكن يطيب له أن يسـتذكر الأمر على هذه الشـاكلة. كل ما يعرفهُ أن جميل قـد غادرَ البلاد مع أمه، وأنَّ لا سبب يدعوه إلى البقاء فيها بعد مقتل أبيه.

لقـد تغيرت المدينـة: تخلّصت من وطـأة الاحتلال المبـاشر، ولم تعـد البراميـل الأسـمنتيّة تغلـق الأزقـة والطرقـات، لا وجود للجنود فـوق البيوت والعمارات العاليـة، وأصبحت عـمارة العو ضئيلة، رغـم اكتظاظها بالعيادات الطبيـة، بجانب المجمعات التجارية الكبيرة، صار شارع المكتبات في حاجة دائمة إلى من ينظم السير، شرطـي فلسـطيني يطلـق صافرتـه للمركبـات، ويحرر المخالفـات، ابتسـم زيـاد في قلبـه، لم يعد كـسر القواعد عملًا وطنيًّا في هذا المكان. وفكَّر في لعبته الأثيرة، عندما كانـوا يلعبـون بالجنـود، لكـسرِ الملـلِ غالبًـا وبحثًا عن الأدرينالـين. لم ينضج وعيهـم بما يكفي لكي يعتبر الأمر

فعل مقاومة. كانت لعبتهم سابقة على اللغة، وكانوا مجرد أولاد.

وجد نفسه يفكر في أيمن، لقد حكم عليه بالسجن عشرين عامًا من دون أن ينبس باعتراف واحد عن خليته المقاومة. اعتقله الاحتلال مسلحًا في المخيّم، إثر اشتباكٍ مع الجنود أثناء الاجتياح. فكَّر في أن كل الأشياء التي تغيَّرت، قد تغيّرت على السَّطح، وأنَّ الحالة لم تنتهِ، والمكان ما زال هو المكان.

مشى إلى آخر الحارة، انتبه إلى ولد صغير يتبعه، لاحظ أنه يتوقف حين يكف عن المشي، ويتحرك عندما يتقدم خطوة أو خطوتين. التفت إليه فضحك الولد وهمَّ بالفرار قبل أن يستوقفه: إيش اسمك؟ زياد. ابن تميم؟ آه. أحاط الصبيَّ بذراعيه، طفلٌ آخر عصيٌّ على التدجين.

جاءه صوت من الخلف:

- ولد شقي مثل واحد بعرفه..

- بس ما يكون قرد زي أبوه.

تبادلا النظر. ضحكا. تعانقا طويلًا، وكل يضرب

بيدهِ على ظهر صاحبه. تأمّل أحدهما الآخر، تواعدا على اللقاء في المساء، مع قهوةٍ وسجائر.

سوف يلتقي الاثنان ويتحدّثان عن ابتهال، بوصفها «سر الحارة»، وكيف خُيِّل إليهما في تلك الأيّام أن أحدًا غيرهما لا يعرفُ بقصة الفدائيّ «أبو البارودة» الذي شاهداه في غرفة نومها يحمل ابنتها، وكيف صمَّما دورية حراسة للشارع للتأكد من سلامته، وأنهما رغم كل ما ذاقوه من عقاب لم يتحدثا عن الأمر، وكيف اتضح لهما لاحقًا، أن الحارة كلها تسكتُ عنه.

لم يخطر للولدين الغضَّين في تلك الأيّام، أن زوج ابتهال هو العنصر الرَّابع من شلّة الأربعة، شلّة ضمَّت الجاسوس والفدائي معًا، منذ كانوا أطفالًا.

وسيعرف زياد من تميم أن زوج ابتهال بقي مطاردًا حتى مجيء السلطة، ثم أصبح ضابطًا كبيرًا في الشرطة الفلسطينية، وأنه يجالس أباهُ كل يومٍ في دكّانه، يلعبان طاولة زهر.

سرحَ زياد في أفكاره، عندما غادر الحارة للالتحاق بالجامعة جاءه اتصال من والده بعد أشهر من سفره:

«ما تروّح يابا إلا بس تخلص جامعتك، أجو سألوا عنك»، لكن لم يخطر لأيهما أن السنوات سوف تتوالى إلى هذا الحد، وأن انتفاضة ثانية سوف تعصفُ بالبلاد، واجتياحًا داميًا، قبل أن يعود، فإنه على حد وصف تميم: «جنين بعدها جنين، مجنونة ما بدّلت عاداتها».

سيتملى زياد في تلك الأفكار بعد حلول المساء، عندما يجالسُ صاحبه، لكنه قبل أن يفعل، وقبل أن يطرق باب بيتهم ويدلف محتضنًا أمه وأشقاءه وشقيقاته، سوف ينتبه إلى امرأةٍ خمسينية، بشعر تخلله الشيب، وجسد مترهل، تجرُّ حفيدها بعربةِ أطفال، استطاع أن يرى فيها بقايا المرأة الجميلة والجارة الغامضة التي تصدى لحراسة سرّها، تساءل إن كانت تتذكّره، أو عرفت بأنهما تطوّعا حرّاسًا لحماية زوجها، وحين عبرت بجانبه من دون أن تلتفت إليه أو تعيره انتباهًا، ابتسم، وفكّر في كل الأشياء التي تشيخ..

تمّت

تموز ٢٠٢٤

مكتبة
t.me/soramnqraa

تضيء هذه الرواية مقطعًا من الحياة الفلسطينية في ثمانينيات القرن الماضي، أثناء انتفاضة الحجارة، وتلعب فيها «الحارة» بحكاياتها وأهلها دور البطولة، حيث للفتية حضورهم المشاغب والمتردد أمام أسئلة الحياة المحظورة..

ففي أحد الأيام، اتّفق صبيّان من حارات جنين على وضع كيس به جهاز راديو تالف في طريق دوريّات جيش الاحتلال، وأن يمدّا منه سلكًا إلى جانب الشارع، ليبدو مثل جسم مشبوه قادر على إرباك الجنود، وإثارة هلعهم؛ «وهيك بنلعب فيهم»، قال زيادٌ، ففي تلك الحارة يلعب الأولاد ألعابًا جماعية كثيرة، ككرة القدم، وطابة وسبع حجار، إلا أنَّ لعبتهم الأثيرة دائمًا هي اللعب بجنود الاحتلال.

هذه الرواية هي عن اللعب باعتباره عملاً وطنيًا، وفعلُ مقاومة، وإن لم يبدُ كذلك في حينه.

الناشر

*****

طارق عسرواي: كاتب، وقانوني فلسطيني، ومؤسس في مشروع طِباق الثقافي في فلسطين. حصل كتابه "رذاذ خفيف" على جائزة سميرة عزّام للقصة القصيرة، وتم غناء نصوصه الشعرية من قبل فنانين فلسطينيين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

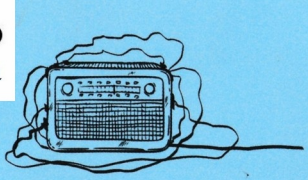

اللّعِب بالجُنود

9 789950 402911

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

طباق للنشر والتوزيع
TIBAQ PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com